

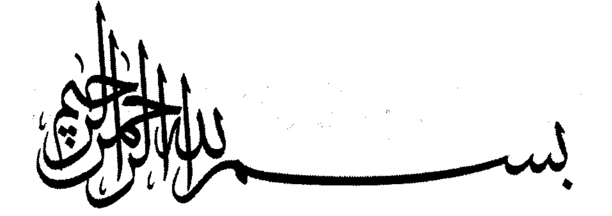


رسالة اعتبار الناسك

في ذكر الآثار الكريمة والمناسك

لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي
(ت 614هـ)

دراسة وتحقيق:
رشيد العفاقي



رِسَالَةُ ٱعْتِبَارِ ٱلنَّاسِكِ

فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْكَرِيمَةِ وَٱلْمَنَاسِكِ



مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث

الرابطة المحمدية للعلماء

شارع لعلو، لوداية ـ الرباط ـ المغرب.

العنوان البريدي: ص. ب: 1320 البريد المركزي ــ الرباط

البريد الإلكتروني: almarkaz@arrabita.ma

خضع هذا الكتاب قبل نشره إلى التحكيم والمراجعة

سلسلة: لطائف التراث (5)

الكتاب: رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك

المؤلف: أبو الحسين ابن جبير (ت.614هـ)

دراسة وتحقيق: رشيد العفاقي

مراجعة: جمال القديم، وسعيد بلعزي

خطوط الغلاف: حميدي بلعيد

الإخراج الفني: نادية بومعيزة

عدد النسخ: 1500

الطبعة الأولى: 1435هـ_2014م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تمثل بالضرورة رأي المركز

الإيداع القانوني: 2013 MO 2992

ردمك: 978-9954-619-03-2

الطبع والتوزيع: دار الأمان للنشر والتوزيع ـ الرباط

إهــداء

إِلَى وَالِدِي عبد السّلام بن محمد العفَاقِــي

رَحِمَهُ الله رَحْمَةً وَاسِعَةً

الَّذِي كَانَ شَغُوفاً بالحجّ إلى بيت الله الحَرَامِ،

كثيرَ الشّوق إلى طيبَة، على سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاة والسَّلَام

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبَعْدُ، فَيُعْتَبَرُ الحَجُّ خَامس أركان الإسلام التي لا يقوم إلَّا بها، ونظرا لعِظَم هذه الشّعيرة في الإسلام أَوْلَاهَا العُلماء عناية كبيرة؛ إذ لا يخلو كتاب من كتب الحديث والفقه من «كتاب الحجّ» الذي تُفصَّل فيه أحكام أداء المناسك وآدابها، وما يلزم الحاج فعله ومعرفته، بدءا من عقده النّيّة على أداء هذه الفريضة، إلى أن يُنهي مناسكه، وما يجب عليه القيام به لو ارتكب خطأ ما، أو أخلّ بواجب من واجبات الحجّ، وغير ذلك من التفاصيل المبسوطة في تلك الكتب، بين مستوعب ومختصر، بل إن كثيرا من العلماء أفرد أحكام الحج في كتب مستقلة، جمع فيها كل ما يتعلق بهذا الركن العظيم.

ولم يقتصر الاهتمام بالحجّ، والتأليف فيه، على الفقهاء والمُحَدِّثِين فقط؛ بل كان للأدباء إسهام كبير فيه، وقد ظهر هذا الاتجاه بالخصوص، لدى الرَّحَّالين المغاربة والأندلسيين، فدأب كثير منهم؛ من قُصَّاد بيت الله، على وصف كل ما يشاهدونه من مشاهد، وذكر ما يلاقونه في رحلاتهم تلك، وما يعرض لهم فيها من أحداث، حتى إذا بلغوا البقاع المقدسة، تحدثوا عن أدائهم المناسك والشعائر، وكانت رحلاتهم تسمى «الرحلات الحجّية»، أو «الرحلات الحجازية».

ولئن تناول الفقهاء مناسك الحج بأسلوب علمي سهل لمقام التعليم؛ فإن الأدباء قد سبكوا حديثهم عن أحكام الحج في قالب أدبي رفيع، قوامه المحسنات البديعية،

والصور البلاغية، والألفاظ الجَزْلَة؛ لأن غرضهم من ذلك هو إظهار ما يختلج في النفس، ويخالط الوجدان من مشاعر التعظيم لبيت الله الحرام، وإظهار السرور والحبور عند القدوم إلى تلكم الأماكن المقدسة، كما نقف على ذلك عند أحد أبرز هؤلاء الرحالة المغاربة، وهو ابن بطوطة الطنجي (ت.779هـ) عندما أكرمه الله بالوفادة على مكّة المكرمة وطاف بالبيت العتيق وشرب من ماء زمزم فاجتاح نفسه ذلك الشعور، فأنشأ يقول: «ومن عجائب صُنع الله تعالى، أنه طَبَعَ القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشّوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حُبّها متمكّناً في القلوب، فلا يحلّها أحدٌ إلا أَخَذَتْ بمجاميع قلبه، ولا يُفارقها إلا أَسِفاً لفراقها، متولّهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب. حِكْمَةٌ مِنَ الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام. والشوق يُحضِرُها وهي نائية، ويُمْثِلُها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق، ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، ويشاهد التلف في طريقها. فإذا جمع الله بها شمله، تلقّاها مسروراً مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصَباً، إنّه لأَمْرٌ إلهي، وصُنع ربّاني». (رحلة ابن بطوطة1/58ـ59).

ومن الرسائل الأدبية الموضوعة في مناسك الحج: «رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» للعلامة الرَّحَّال الأندلسي أبي الحسين ابن جبير(ت.614هـ)، التي تتميّز بأسلوبها الرّائق، وتعبيرها البليغ، نظير ما نجده في المقامات الأدبية، وليس ذلك بمُستبعد من إمام مثل ابن جبير رحمه الله، فقد كان من كُتّاب ديوان الخلافة الموحدية، وبلغ شأوا كبيرا في نظم الشعر وكتابة النثر.

وقد كان يُعتقد أنّ هذه الرسالة من الآثار الأندلسية المفقودة، إلى أن وَفَّقَ الله للعثور عليها الأستاذ رشيد العفاقي الباحث بمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث سابقا، والباحث حاليا بمركز عقبة بن نافع للداراسات والأبحاث حول

الصحابة والتابعين؛ فاستخرجها من أحد المصادر الأدبية والتاريخية للمغرب والأندلس، وهو كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» للأديب الصوفي الكبير محيي الدين ابن عربي الحاتمي المرسي المتوفى بدمشق عام 638هـ، فقام بدراستها وتوثيق نِسبتها إلى مُؤَلِّفِها، واجتهد في ضبطها والتعليق عليها بما يخدم نصّها ويُقَرِّب معانيها.

وأغتنم فرصة تقديم هذه التحفة الأدبية للقراء والباحثين، ضمن منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، لأشكر الباحث على ما قام به من جهد في إخراج هذه الرسالة؛ والشكر موصول كذلك إلى كل من كان له إسهام في ذلك من قريب أو بعيد، سائلا الله تعالى أن يتقبّل من الجميع عملهم، كما أسأله تعالى أن يجعل ثواب نشر هذا الكتاب في صحائف راعي العلم والعلماء مولانا أمير المومنين جلالة الملك محمد السادس أعزّه الله وأيّد أمره، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه

أمّا بَعْدُ، فهذا تأليف يشتمل على رسالة تُسَمّى: «رسالة اعتبار النّاسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، وهي مِنْ تأليف الرَّحّالة الأندلسي المشهور أبي الحُسين محمد بن جُبير الكناني البلنسي. وقد ظهر عِنوان هذه الرسالة على غلاف رحلة ابن جبير التي صدرت عن إحدى دُور النشر العربية قبل عُقود، ثم حذت حذْوها دورُ نشرٍ أخرى، وقد شاع الأمر شيوعا كبيرا اليوم، فَمَا أنْ يُلْقِيَ الباحث بهذا العنوان في إحدى شبكات المعلومات ـ الإنترنت، على سبيل المثال ـ، أو يقوم باستشارة اللّوائح البيبليوغرافية المنشورة الآن، حتى يجد نفسه أمام العشرات مِنَ المواقع التي تُحيله على المقالات التي تناولت بالدِّراسة والتّحليل «رحلة ابن جُبير المُسَمّاة: **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك**».

وإذا كانت الرِّحلة قد وردت بهذا العنوان في بعض نُسخها المخطوطة القديمة، فإنها وردت أيضا باسم: «**تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار**»، ولعلّ هذا العنوان الثاني هو الأقرب والأنسب لِنَصِّ الرِّحلة الذي لم يقتصر على ذكر مناسك الحجّ فحسب، وإنّما كان تَدْوِيناً ووَصْفاً لأسفار ابن جُبير وتنقّلاته في بُلدان عديدة. ويبدو أنَّ مصدر اللَّبس الذي حصل في هذا الأمر يرجع إلى أنَّ لابن جُبير تأليفاً آخر غير الرِّحْلَة يُسَمَّى: «رسالة اعتبار النّاسك»، وقد ظنّ بعضُ نُسّاخ تآليفه أنّه عنوان نصّ رحلته فأثبته في نسخة خطِّيّة منها، ثم سرى تأثير ذلك في الكتابات اللاحقة، وسيجد القارئ بعضَ التفاصيلِ حول هذا الأمر في أحد مباحث هذا الكتاب.

لقد تأكّد لدينا ـ بحُجَج قَوِيّة ـ أنَّ تَسْمِيَةَ رحلة ابن جُبير باسْم: «رسالة اعتبار النّاسك» كَانَ وَهْما مِنَ الأوهام التي قد نجد لها أشباها ونظائر في عدد من أسماء

التّآليف التراثية العربية. وكان المستعرب وِلْيَامْ رَايْتْ (WILLIAM WRIGHT) ـ أوّل نَاشِرٍ لِلنَّصّ الكامل لرحلة ابن جُبَير عام 1852م ـ قد شكّك في هذا الاسم، واعتبره كذلك مِنْ وَهْمِ مَنْ يجهل الرِّحْلَة. كما أنّ بعض مَن اعْتنى برحلة ابن جُبير كالمستشرق الروسي كراتشكوفسكي يذكر أنَّ عنوانها غير معروف بالضّبط، وقال: لِلرِّحْلَة «عنوانان تغلب عليهما الصّنعة،.. وأنَّ كلاهما منحول»، ولكنّه أخطأ هو أيضا حين تابع حاجي خليفة فيما كتبه في «كشف الظنون» فقال: إنَّ اسم الرِّحْلة ينبغي أن يكون: «رحلة الكناني»، نسبةً إلى القبيلة التي ينتسب إليها ابن جُبير. ومن الآراء التي لم تخرج عن هذا الإطار مَا أدْلى به الدكتور إحسان عباس الذي زَعَمَ أنّ «رسالة اعتبار الناسك» قد تنطبق على جُزء غير كبير مِنَ الرِّحْلَة.

ولطالما مررتُ على هذه الآراء، وعلى غيرها من الأقوال التي تصبّ في نفس الاتجاه، فكنتُ أستبعد ذلك، وظلّ الشَّكُ فيما قرّره أولئك الدّارسون يخالج النّفس دُون أن تكون لَدَيّ الأَدِلّة الكافية لنقض آرائهم، ولكن مع مُرور الوقت، وبفضل القراءة المستمرة لآثار الأندلسيين، قُدِّر لي أن أقف على نُصوص تقول بشكل صريح إنَّ «رسالة اعتبار الناسك» ليس عنواناً لرحلة ابن جُبير الأولى كَمَا وَهِمَ بعضهم، ولا هي اسم لجزء منها كما زَعَمَ أَحَدُ الدّارسين، وإِنَّما هو عنوانُ تأليفٍ مُستقِلٍّ، خَطَّته يمينُ أبي الحسين بعد حوالي سبع سنوات مِنْ إيابه مِنَ الرِّحْلَة الثانية، بل أكثر من ذلك، أو لِنقُل أهمّ من ذلك: إنَّ هذه الرِّسَالَة التي كانت في عِدَادِ تُرَاثِ الأندلسيين المفقود، لم تَعُدْ كذلك اليوم، فَقَدْ أَمْكَنَنَا أنْ نعثر عليها، فهي - إِذَنْ - مِنْ تآليف ابن جُبير التي أَفْلَتَتْ من يَدِ الضّياع، وسَلِمت من عَوَادِي الزّمان ونوائب الحدثان، ووصلت إلينا كاملة لا تنقصها كلمة، وسيقِفُ القارئ على نصّها كاملا في هذا الكتاب الذي بَيْنَ يَدَيْهِ.

لقد عثرتُ على هذه الرِّسَالة في كتاب «محاضرات الأبرار ومُسامرات الأخيار» لمحيي الدين ابن عربي الصوفي الأندلسي المشهور، وقد وردت في الكتاب المذكور منسوبةً إلى

«أَحَد أُدباء المغرب»، هكذا دُون أن يُسَمِّيَ ابن عربي صاحبَها، ولعلّه لهذا السبب بقيت الرِّسَالة مجهولة، ويبدو أنَّ نُسْخَة الرِّسالة التي وقعت بِيَدِ صاحب «المحاضرات والمسامرات» كانت عارِية مِنْ اسم كاتبها: أبي الحسين ابن جُبير الذي كانت تربطه بابن عربي معرفة قديمة، لعلّها وصلت إلى حَدِّ الصّداقة في بعض الأوقات، فقد الْتَقَيا بالأندلس غير مَرّة، كما الْتَقَيَا بعدد من مُدن المغرب، وقد يكون آخر لقاء بينهما حصل بمراكش يوم أُخرج جثمان ابن رشد مِنْ داره بها ليُنقل إلى قُرطبة عام 595هـ.

لقد أحسن ابن عربي صُنعاً عندما أثبت نَصَّ الرِّسالة كاملا في تأليفه «المحاضرات والمسامرات» وإنْ لم يَذْكُر اسْمَ الكاتب، وزَادَ في الإحسان حين أثبت عنوان الرِّسَالة، فهو بصنيعه هذا فَتَحَ لنا الباب للبحث عن هُوِيّة مُؤَلِّفِهَا الذي لم يكن سوى صاحبِه أَبي الحُسين ابن جُبير.

أَمّا الرَّجُل الثاني الذي يتقاسم الفضل مع ابن عربي في أنْ هَدَانَا إلى اكتشاف مُؤَلِّف هذه الرِّسَالة، فهو المؤرخ محمد بن عبد الملك المراكشي الذي ترجم لابن جُبير ترجمة جَيِّدة في كتابه «الذيل والتّكملة» قد لا نَجِدُ لها مثيلا في كُتب التّراجم الأخرى التي عَرَّفَ أصْحَابُها بالرحّالة الأندلسي، وانْفَرَدَ مِنْ بين كُلِّ الذين ترجموا لابن جُبير، بِذِكْرِ هذه الرِّسَالَة في عِداد مُؤَلَّفاتِه، وقد عوّدنا هذا المؤرِّخ الفذ ـ الذي كان واسعَ الاطِّلاع على الأُصُول التاريخية ـ على أنْ يُغْنِيَ تراجمه بفوائد تاريخية سَكَتَ عنها كُتّاب آخرون، فقد ذَكَرَ اسْمَ الرِّسالة، ومُرسِلَها، واسْمَ المرسَل إليه، وتاريخَها، ومكانَ صُدُورِها، وقد كانت هذه البيانات شواهدَ إثباتٍ هامّة في اكتشاف الاسم الحقيقي لصاحب «رسالة اعتبار النَّاسِك في ذِكر الآثار الكريمة والمناسك».

فجزاهما الله خيراً على صَنِيعَيْهِمَا، وأَجْزَلَ أجْرَهُما على مَا أَسْدَيَا للتُّراث الأندلسي مِنْ جَلِيل الخِدمة والعناية، وفائق التّحقيق والرِّعاية.

وقد عملنا على استخراج الرِّسَالة من كتاب «مُحاضرات الأَبرار ومُسامرات الأَخيار» لابن عربي، وقُمْنَا بضبطها وتحقيقها اعتماداً على بعض النُّسَخ الخَطِّيَّة من الكتاب المذكور، مُتناولين بعض ما وَرَدَ في مَتْنِهَا بالشّرح والتّعليق.

ولا يفوتني أن أشير أخيرا إلى أني تقدّمت بهذا الكتاب ليُنشر ضمن سلسلة «لطائف التراث» التي يُصدرها «مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث» التّابع للرابطة المحمدية للعلماء، وقد عَمِلَتْ إدارة المركز مشكورةً على عرضه على التحكيم، ثُمّ وَافَتْنِي بتقريرين في الموضوع استفدتُ منهما كثيراً؛ ومِنْ جانبي عرضتُ رسالة ابن جُبير على بعض أساتذتي وأصدقائي الذين ساعدوني في تقويمها وضَبْطِ نَصِّهَا.

أتقدّم بالشكر الجزيل إلى ذ.جمال القديم، د.عبد القادر سعود، د.مصطفى طوبي، د.جعفر بن الحاج السُّلَمِيّ، ذ.سعيد بلعزي، ذ.عبد اللطيف السملالي، ذ.يونس السَّبَّاح... فقد كان لِكُلِّ واحد مِنْ هؤلاء الأساتذة الأَجِلاَّء دورٌ في تصحيح نَصِّ الكتاب وتقويمه ومراجعته قبل أن يأخذ طريقه إلى المطبعة. والكلام في باب الشُّكْر هُنَا يظل ناقصا إذا لم أذكر الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الجيلاني، لقد كان كثير السُّؤَال على «رسالة» ابن جُبير، وهو الذي شجّعني على تحقيقها، ثُـمَّ وَافَقَ على أنْ تُدرج ضمن منشورات «مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث»، فَلَهُ جزيل شُكري وجميل عرفاني.

نرجو أن نكون بهذا العمل قد أدّينا نصيبا من وَاجِبِ التّعريف بتراثنا الأندلسي المجهول، ونشره بين الناس، كما نأمل أن يجد القارئ في هذه الرِّسالة اللَّطيفة بعض الفوائد، حقّق الله الآمال وبلّغ المراد، فهو على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

رشيد بن عبد السلام العفاقي

طنجة: 14 جمادى الأولى 1432هـ/ 18أبريل 2011م

القسم الأول: الدراسة
سيرة أبي الحسين ابن جُبير

لأَبِي الحُسين مَكَــارِمُ لَوْ أَنــهَا   عُدَّتْ لَمَا فَرَغَتْ لِيَوْمِ المَحْشَرِ

أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمدغليس
في مدح ابن جُبير (المقري، نفح الطيب 2/486)



1 ـ اسْمُهُ وَنَسَبُهُ

ابن جُبير هو: محمد بن أحمد بن جُبير بن محمد بن جُبير بن سعيد بن جُبير بن سعيد ابن جُبير بن سعيد بن جُبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام ابن مروان بن عبد السلام بن جُبير الكناني[1].

وجُبَيْر[2]، آخر مذكور في هذه السلسلة، هو الجدّ الأعلى لأبي الحسين، وهو الدّاخل إلى الأندلس في طالعة بلج بن بشر ابن عياض القيسي القُشيري، في محرّم سنة(123 هـ)، وكان نزوله بِكُورَة شِذُونَة حسبما يذكره ابن عبد الملك المراكشي[3]، غير أنّ ابن الخطيب يقول: إنَّ أوّل داخل إلى الأندلس مِنْ بيت ابن جُبير هو: عبد السّلام بن جُبير[4].

أمّا فيما يخصُّ قَبِيلَتَهُ، فقد ذَكَرَ ابن عبد الملك أنَّ المُتَرْجَم مِنْ ولد ضمرة بن كنانة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة[5]. وقد تكلّم ابن حزم في«الجمهرة» على منازل بني كنانة ابن خزيمة فقال: «ودارهم بالأندلس: شِذُونَة والجزيرة [الخضراء]»[6].

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 596).

(2) ذكر ابن عبد الملك في ترجمة والد أبي الحسين ابن جبير ما يلي: «وضبْطُ اسمه ومَنْ سُمِّيَ به من عقبه: بجيم وباء بواحدة مصغّرا ساكن الياء آخره راء». (الذيل والتكملة 1/ 80).

(3) الذيل والتكملة (5/ 595 ـ 596)، وأورد القاسم بن يوسف التجيبي السبتي سلسلة نسب ابن جُبير، ثم قال: «ونقلت هذا النسب هكذا من خَطٍّ ابن فرتون ﷺ». (مُستفاد الرحلة والاغتراب، ص.243).

(4) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 146).

(5) الذيل والتكملة (5/ 596) .

(6) جمهرة أنساب العرب، (ص189).

يُكنى ابن جُبير «أَبَا الحُسين»[1]، وقد وجدنا بعضهم يُكَنِّيه «أبا الحسن»، منهم: أبو الحجّاج ابن الشيخ البلوي[2] وتلميذه أبو العباس الشّريشي[3] وابن سعيد القلعي[4] وأسد بن أبي الطّاهر الدمشقي[5].

أمّا فيما يتعلّق ببلدته، فقد قال ابن الأبّار في ترجمة ابن جُبير: إِنَّهُ «مِنْ أهل بلنسية، ونَزَلَ أَبُوهُ شاطبة، وانتقل هو إلى غرناطة»[6].

2 ـ مَوْلِدُهُ وَنَشْأَتُهُ

قال الحافظ المنذري في ترجمة ابن جُبير: «سَأَلْتُهُ عن مولده فقال: ليلة السّبت العاشر من شهر ربيع الأوّل سنة أربعين وخمسمائة (540هـ)، ببلنسية مِنْ شرق الأندلس»[7].
وقد صادف مولده فترة مُضطربة من تاريخ شرق الأندلس، وهي فترة انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحّدين، وكَجُلِّ المراحل الانتقالية في التّاريخ السياسي للدّول كانت هذه الفترة مطبوعة بالمحن والفتن، فَبَعْدَ اخْتلال أحوال المرابطين، وفُقدانهم للسلطة بعدد من حواضر الأندلس، ظلّ بعض الأوفياء لهم من بني غانية مُستمسكاً بدعوتهم في بلنسية، لكن ما لبث بعضهم أنْ أَسَاءَ التَّصَرُّفَ، فَمَا كان مِنَ البلنسيين إلّا أن ثاروا عليه، وحوّلوا وَجْهَهُم صَوْب آخر قُضاة بلنسية في العهد المرابطي وهو الفقيه الأندلسي أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن عبد العزيز، وأجمعوا على توْليته أميراً

---

(1) التكملة(2/ 109)، الذيل والتكملة (5/ 596).
(2) ألف با (1/ 376).
(3) شرح مقامات الحريري (1/ 120).
(4) المغرب في حُلى المغرب (2/ 311).
(5) تاريخ الإسلام (13/ 418).
(6) التكملة (2/ 109).
(7) التكملة لوفيات النّقلة (2/ 407).

عليهم، وقد تردّد ابن عبد العزيز في الاستجابة لهم أوّل الأمر، ثم قَبِل بعد إباء، وتَمَّتْ لَهُ البيعة يوم الإثنين 3 شوال عام 539هـ، وبعد بضعة شُهور تمرّد عليه جُند عبد الله ابن عياض؛ وَالِي ابن عبد العزيز المذكور على الثّغر الأعلى، وأحْدَقُوا بقصره ثم اقتحموه ونهبوا ما وُجِدَ به، وقد استطاع مروان بن عبد العزيز أن يَنْجُوَ من بطشهم ويفلت من أيديهم، إذْ تمكّن مِنَ الخُروج مِنَ القصر والتَّدَلِّي مِنْ أسوار بلنسية لَيْلاً، ثم سار إلى المريّة، وهناك اجتمع بالقائد محمد بن ميمون، وكان يأمل أنْ يَلْقَى مِنْهُ الحِماية، لكن خاب ظنّه في ذلك. ويحكي ابن الأبار أنَّ القائدَ ابن ميمون المذكور ظلَّ وَفِيًّا لِبَنِي غانية، وَأَنَّهُ لَمْ يتردّد في إلقاء القبض على مروان بن عبد العزيز وحَمْلِه مُقيّداً إلى عبد الله بن محمد بن علي بن يوسف المسوفي حاكم جزيرة ميورقة، وهُناكَ سُجِن في بيت مُظلم مُطبق كان لا يعرف النّهار فيه من الليل، وتُرِكَ أوقاتا دون غذاء ولا ماء، وأقام مسجونا نحوا من عشرة أعوام، وقيل اثنى عشر عاما، ثم إنه تخلّص مِنْ معقله بِسَعْيِ الوزير أبي جعفر ابن عطية بعد أن خُوطِب إسحاق بن علي ابن غانية[1] بتسريحه، ولما أُطلق سراح مروان بن عبد العزيز جَنَحَ إلى الموحّدين، ورحل إلى حضرة دولتهم مراكش، ونال لديهم حُظوة في أوّل الأمر إذْ كان يحضر المجالس السُّلطانية، ولكنه عاش خاملا بَقِيّة الأعوام إلى أن تُوفِّيَ بمراكش سنة 578هـ[2].

وتشاءُ الأقدار أنْ يكون والد أبي الحُسين ابن جُبير مِنْ أصحاب مروان بن عبد العزيز المذكور، بل وزيره[3] بعد نجاح الثّورة على المرابطين، ويَذْكُر ابنُ الأبّار أنَّهُ لما خُلع مروان بن عبد العزيز، استطالت الأيدي على سائر أصحابه «وقَبَضَ أهل الثّغر على أبي جعفر أحمد بن جُبير ـ وهو وَالِدُ أبي الحسين الأديب الزَّاهِد ـ واحتملوه مُقيَّداً إلى

---

(1) ولي ابن غانية جزيرة ميورقة سنة(547هـ).

(2) الحلة السيراء (2/ 218 ـ 226).

(3) الذيل والتكملة (1/ 81).

حصن مُطرنيش ـ وهو من أمنع معاقل بلنسية ـ وسُجن فيه إلى أن فدى نفسه بثلاثة آلاف دينار، إلى ما نُهب له من دفاتر وذخائر، فسُرِّح وتوجّه إلى شاطبة واتَّخذها داراً»[1].

وتكشف هذه الرواية أنّ والدَ أبي الحسين ابن جُبير كان وجها بارزا من وُجوه المجتمع البلنسي، وقد كان له دور في الأحداث السياسية التي أعقبت زوال حُكم المرابطين بشرق الأندلس، ويبدو أنه كان على جانب من اليَسَار مَكَّنَهُ من افتداء نفسه بالمال والخروج مِنْ محنة الأسْر، وعلى الرغم مِنْ أَنَّهُ فَقَدَ جُلّ ثروته في هذا الحادث إلا أنه كان يعتبر نفسه محظوظا وأحسن حالا من كثيرين فقدوا حياتهم في هذه الفترة المضطربة، وفي ذلك يقول: [مجزوء الكامل]

لاَ تَكْتَــرِثْ لِعِلَّــةٍ وَاصْبِــرْ وَفِي اللهِ العِــوَضْ
وَإِذَا سَــلِمْتَ فَــلاَ يَكُــنْ لَــكَ فِي حُطَامِــكَ مِــنْ غَــرَضْ
فَــالنَّفْسُ عِنْــدِيَ جَــوْهَرٌ وَالْمَــالُ عِنْــدِيَ كَــالْعَرَضْ[2]

وقد وقع الحادث المذكور في آخر جُمادى الأولى من عام 540هـ، أي بعد مولد أبي الحسين بنحو شهرين ونصف الشهر، ولا شكَّ أنّ المِحْنَة كانت شديدة على الكبار، أَمّا أبو الحسين ابن جُبير فلم يَشْعُرْ بها لأنه كان لايزال رضيعاً.

وبعد أن اسْتَعادَ أبو جعفر ابن جُبير حُرِّيَّتَه، خرج من بلنسية وانتقل بعائلته إلى شاطبة ـ بلد زوجه ـ، وفيها نشأ وترعرع ولده محمد ابن جبير، ولسنا نعرف ماذا كانت وظيفة والده في شاطبة، لكن الظّاهر أنّه كان كاتبا لأحد أمرائها في العهد المردنيشي، إذ إنّ أصالة محتده وأدواته الأدبيّة كانت تُؤهله لشغل مثل ذاك المنصب، فقد ذكر ابن

---

(1) الحلة السيراء (2/ 223 ـ 224).

(2) الذيل والتكملة (1/ 80 ـ 81).

عبد الملك أنّه كان «كاتبا بليغاً مُحسناً من أهل النَّباهة وسَرَاوَةِ النَّفس»[1]، ومِمّا يَدُلُّ على أنّ أبا جعفر ابن جُبير كان يشغل منصبا ساميا في ذلك العهد قَوْلُ صاحب كتاب «الملتمس» في ولده أبي الحسين: «الفقيه الكاتب أبو الحسين ابن جبير، مِمّن لقيتُــه وجالسته كثيرا ورويتُ عنه، وأصله من شاطبة، وكان أبوه أبو جعفر من كُتّابها ورُؤسائها»[2].

ومِنْ هُنا نُدْرِكُ أنَّ أبَا الحُسين ابن جبير ـ الذي عاش في كنف هذا الوالد الرئيس ـ لم يكابد عناء العيش في صغره، بل نشأ في ظِلِّ نِعْمَةٍ سابغة وتَرَفٍ زائد، ولَمَّا بلغ سِنَّ الدِّرَاسَة دُفع به مِنْ قِبَل أهل بيته إلى التّعلّم والقراءة، ويُعَدُّ والده أبو جعفر أستاذَه الأوّل، ويذكر ابن عبد الملك أنّ أبا الحسين «روى بالأندلس عن والده»[3]، ويُحدّد ابن الأبّار مكان الأخذ والرواية مِنَ الأندلس فيقول: إنه «سمع من أبيه بشاطبة»[4]، ولكن الوَلَدَ مُحَمّداً لم ينعم طويلا بحياة الآباء، وهي من أمتع الأشياء، كما قال أحد الشعراء، فقد تُوُفي أبو جعفر ابن جُبير سنة 552هـ[5] وعُمر وَلَدِهِ إِذْ ذاك 12 سنة.

وكَمَا نشأ أبو الحسين في بيت أندلسي أصيل، وبِيئَةٍ مادِّيَّةٍ ميسورة، نشأ أيضا في وسط أَدَبِيٍّ راقٍ، لقد سبق أن عرفنا أنّ والده كان كاتبا بليغا محسنا،.. بينه وبين الوزير أبي جعفر الوقّشي ـ صهر ولده أبي الحسين ـ مخاطبات ومراجعات أدبيّة، كما نعرف أيضا أنّ لابن جُبير عَمًّا كان يمتلك حَظاً في الأدب، ترجم له ابن عبد الملك المراكشي، فقال: «محمد بن سعيد بن جُبير بن محمد بن جُبير، عمّ أبي الحسين محمد بن أحمد بن

---

(1) الذيل والتكملة (1/ 80).

(2) نقله عنه في نفح الطيب (2/ 487).

(3) الذيل والتكملة (5/ 596).

(4) التكملة (2/ 109).

(5) الذيل والتكملة (1/ 80)، وانظر الرسالة التي كتبها بعض أئمة المغرب في عزاء الوزير أبي جعفر بن جبير (نفح الطيب 5/ 156 ـ 160).

جُبير؛ كان أديبا بارعا، رائقَ الخطّ، بارع الكتابة، قائلاً النَّفِيسَ مِنَ الشِّعر، من بيت علم وجلالة»[1]. ومِنْ أعلام هذا البيت الوزير أبو جعفر ابن جبير البلنسي ــ لعلّه أخو أبي الحسين أو قريبه ــ، ذكره أبو بحر صفوان بن إدريس (ت.598هـ) في رسالة «الارتحال والتعريس»[2].

أَمَّا مِنْ جِهة الأُمِّ، فقد ذكر ابن عبد الملك أنّ أبَا الحسين ابن جُبير «هو سبط أبي عمران بن عبد الرحمن بن أبي تليد الشّاطبي»[3]، ومن هُنا نعرف أنّ والدة أبي الحسين تنتمي إلى بيت بَنِي تَلِيد الشّاطبيين، وهو «بيت عريق في العلم والخير» حسبما قاله ابن الأبّار في ترجمة أحد أفراده النُّبهاء[4].

لا ندري كيف عاش أبو الحسين في شاطبة بعد وفاة والده، وكُلُّ ما نعرفه أنه لم يَعُدْ ساكناً بها، وأنّه انتقل إلى جَيَّانَ واستوطنها، وفيها تزوّج وله من العمر 30 سنة، ويظهر أنّ أبا الحسين كان قد أَنْهى مرحلة طلب العلم أو قارب النهاية حين بلغ إلى هذا المستوى مِنَ العُمر، ولذلك سنُرجئ الحديث عن زواجه وعائلته ووظائفه إلى ما بعد الكلام على مسيرته العِلمية.

---

(1) الذيل والتكملة (6/ 209).
(2) محمد بنشريفة، أديب الأندلس أبو بحر التجيبي (ص190ـ191).
(3) الذيل والتكملة (5/ 596). وانظر ترجمة أبي عمران بن أبي تليد (ت.517هـ) في «كتاب الصِّلَة» لابن بشكوال (2/ 247 ـ تحقيق: بشّار عوّاد). وجاء في سند رواية كتاب «الانتقاء في أخبار الثلاثة الفقهاء» لابن عبد البر، ما يلي: «أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام الزاهد العالم الثقة الأمين أبو الحسين محمد بن الشيخ الفقيه العالم أبي جعفر أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، قال: أنبأني والدي المذكور، عن جدي لأمي أبي عمران موسى بن أبي تليد الشاطبي، قال: أخبرني الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري رضي الله عنه، قال: الحمد لله رب العالمين...».
الإنتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.1417هـ/ 1997م، (ص.33).
(4) انظر ترجمة موسى بن أبي تليد في التكملة (2/ 171).

3 ـ شُيُوخُهُ

ذكر ابن عبد الملك أَنَّ أَبَا الحسين «رَوى بالأندلس[1] عن أبيه وأبي الحسن بن محمد ابن أبي العيش، وأَبَوَيْ عبد الله: ابن أحمد بن عروس وابن الأصيلي[2]، وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يبقا بن يسعون»[3]، ثم قال: «وأجاز له أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز ابن الدباغ»[4]. وذكر ابن عسكر أَنَّ ابن جُبير «يُحَدِّث عن جماعة من شيوخ الأندلس، منهم أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش[5]، قرأ عليه القرآن العظيم وحدّثه بجميع الروايات عن أبي الحسن بن الدش عن أبي عمرو الدّاني»[6].

4 ـ زَوَاجُهُ

غَادَر أبو الحسين ابن جُبير مدينة شاطبة وانتقل إلى جيّان، وفيها تزوّج الفاضلة عَاتِكَة، المدْعُوّة بِأُمِّ المجْد، بنت الوزير الحسيب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقّشي، وقد وَقَفَ ابن عبد الملك على تقييد بِخَطِّ ابن جُبير يُؤرِّخ لهذا الحدث السعيد، وَرَدَ فيه: «كان تجهيزُها إليَّ بجيّان في الحادي عشر من شعبان سبعين وخمسمائة»[7].

(1) ذكر ابن الأبار أن أبا الحسين ابن جبير: سمع بشاطبة من أبيه أبي جعفر وأبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن ابن أبي العيش وأخذ عنه القراءات. (التكملة 2/ 109).

(2) ترجمة أبي عبد الله ابن الأصيلي موجودة في (صلة الصلة 3/ 160)، ومِمَّا جاء فيها: «ذَكَرَهُ أبو الحسين ابن جبير، وقال: قرأت عليه العربية؛ ألفيته بِخَطِّهِ».

(3) الذيل والتكملة (5/ 596).

(4) نفسه (5/ 596)، وانظر ترجمة أبي الوليد الدباغ في: صِلَة الصِّلَة (5/ 276 ـ 277).

(5) في المطبوع: العشائر؛ وهو خطأ، والصحيح هو ما أثبتناه، وترجمة علي بن أبي العيش موجودة في: الذيل والتكملة (5/ 286)، وصِلَة الصِّلَة (4/ 98ـ 99)، ومما ورد في هذا المصدر الأخير: «روى عنه الحاج الأديب أبو الحسين بن جبير، وقفت عليه بخطِّه». وقد تكرّر مثل هذه العبارة في بعض التراجم، مما قد يعني أن ابن الزبير كانت بيده لائحة بأسماء شُيوخ ابن جُبير مع مروياته عنهم.

(6) أعلام مالقة (ص138).

(7) الذيل والتكملة (5/ 606).

وكانت هذه الفاضلة تصغر زوجها بِسِتّة أعوام، إذْ نُقِلَ عن ابن جُبير قوله: «كان مَوْلِدُهَا بِمُرسية لاثْنَتَيْ عشرةَ ليلة بقيت من محرم ست وأربعين وخمسمائة»[1].

وقد وَجَدَ أبو الحسين ابن جُبير في أُمِّ المجد الزّوجةَ المخلصةَ الصّابرة، فهي التي ساعدته على تخطّي صِعاب الحياة، ووَفَّرَتْ له من أسباب السّعادة ما جعلته يعيش حياة هنيئة مطمئنة، حتى إن أبا الحسين كان يُقدِّرها ويُثْني عليها ويصفها بالقرين الصّالح، والزّوجة الصالحة خير متاع الدنيا كما جاء في الحديث الشريف، ولما قضى الله تعالى بوفاتها أسف أبو الحسين عليها كثيرا، دَلَّت على ذلك مراثيه فيها أيّام مرضها وبعد موتها.

أمّا وَالِدُهَا أبو جعفر الوقّشي، فهو من أهل بلنسية، وقد «كان من بيت جلالة وحسب، شهيراً، سريّ الهِمّة، أديبا بارعاً، فاضلا، شاعرا مطبوعا، كاتبا بليغا، كَتَبَ بجيّان عن أبي إسحاق بن هَمُشْك»[2]، وذكر ابن عبد الملك في ترجمته أنَّهُ «كانت بينه وبين أبي الحسين بن جبير، صهره على ابنته أم المجد عاتكة، وأبيه أبي جعفر بن جُبير مخاطباتٌ، نثرا ونظماً، ومُراجعات»[3]، ولم يصل إلينا من هذه المخاطبات والمراجعات إلاَّ ما ذكره صاحب «أعلام مالقة» في ترجمة ابن جبير، قال: «وأهدى إليه صِهْرُهُ الوزير أبو جعفر الوقّشي سيفاً، وكتب معه: [المتقارب]

بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِخِلٍّ كَرِيمٍ ... يَمُدُّ إِلَيْكَ ذِرَاعَ النِّجَادِ

فَوَشِّحْ بِهِ مِعْطَفَيْكَ إِذَا مَا ... دُفِعْتَ إِلَى جَوْبِ بِيدِ البِلاَدِ

(1) الذيل والتكملة (5/ 606).

(2) نفسه (1/ 197).

(3) نفسه (1/ 201).

وقد راجعه أبو الحسين بأبياتٍ مِنْ شِعْره الرّائق[1].

والوزير أبو جعفر الوقّشي المذكور سَكَنَ مدينة مالقة وتردّد إليها كثيرا، وبها كانت وفاته «يوم الثلاثاء عقب محرم 574هـ»[2]، وقد رأينا في ترجمته أَنَّهُ كان كاتبا لدى أبي إسحاق بن هَمُشْك، وابنُ همشك هذا هو صهر الأمير أبي عبد الله محمد بن مردنيش[3] الذي تَسَلَّم حُكم شرق الأندلس بعد انقضاء دولة المرابطين، وقَبْلَ أنْ يَسْتَسْلِمَ الشّرْقُ كُلّه لدَعْوَةِ الموحِّدِينَ.

5 ـ وظائفه

كان ابن جُبير قد بلغ مُسْتَوىً صالحا مِنَ الوَعْيِ والتّمييز عندما دخل الموحِّدون شرق الأندلس، ويبدو أنه مَالَ إليهم مع مَن استجاب لدعوتهم من كبار رجال دولة العهد السّابق وأقرب المقربين إلى ابن مردنيش ـ الأمير السّابق لشرق الأندلس ـ منهم: أخوه أبو الحجّاج ابن مردنيش، وصهره ابن همشك[4] مخدوم أبي جعفر الوقشي الذي سيصبح فيما بعد صهرا لأبي الحسين ابن جُبير، وغيرهما من أعلام ذلك العصر الذين استجابوا لدعوة الموحدين إذْ وَجَدُوا فيهم القوة التي تستحق أن يُستند إليها في تلك الظروف، وهذا ما يُفسِّرُهُ أيضا إقبالُ عدد من علماء الأندلس على دعوتهم والدخول في خدمتهم، منهم على سبيل المثال: أبو القاسم السُّهيلي، وموسى بن سعيد القلعي، ويوسف ابن الشيخ المالقي، ومحمد بن رشد الحفيد، ولهذا الأخير «مقالة في كيفية دُخُولِه في الأمر العزيز، وتعلّمه فيه، وما فضل من عِلْم المهدي»[5]، وهذا «الأمر

---

(1) أعلام مالقة (ص142 ـ 143).

(2) الذيل والتكملة (1/ 197، 201).

(3) نفح الطيب (3/ 323).

(4) المن بالإمامة (ص.302)، والبيان المغرب (ص.121).

(5) الذيل والتكملة (6/ 23).

العزيز» هو من أدبيات تلك المرحلة التي كان يُراد بها الدّعوة الموحدية، وقد وجدتُ ابن جبير يُشيد في مُدَوَّنَةِ رحلته بهذا «الأمر العزيز»، قال مُتَحَدِّثاً عن البلاد المصرية: «ومن عجيب ما شاهدناه في أمر الدعوة المؤمنية، وانتشار كلمتها بهذه البلاد، واستشعار أهلها لملكتها، أنّ أكثر أهلها منهم، بل الكل منهم، يرمزون بذلك رمزا خفيا، حتى يؤدِّي ذلك بهم إلى التّصريح»، ثم ذكر أَمَارَات قال إنها تنبئُ أنّ أهل تلك البلاد كانوا ينتظرون «الكائنة السعيدة من تملّك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صُبْحاً جليلا، ويقطعون بِصِحَّتِهَا، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في إنجاز وعدها؛ شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما، مشافهة وسماعا، أمرا غريبا يدلّ على أنَّ الأَمْرَ العزيز أَمْرُ الله العزيز ودعوته الصِّدق»[1].

وهكذا بادر ابن جُبير بتقديم خدماته للموحدين لما دخلوا شرق الأندلس، وكان في ذلك الوقت قد ضَرَبَ بِسَهْمٍ في الكتابة النّثرية، وقطع شوطا في قرض الشِّعْر، ولعلّ أشعاره التي كَتَبَ بِهَا إلى أبي عبد الله الرُّصافي البلنسي تنتمي إلى مرحلة مُبكِّرة من حياته كان لايزال فيها قريبا من بلنسية[2]، ولم يلبث ابن جُبير أن انْضمّ إلى ديوان كُتّاب الخلافة، وكانت البِضاعة المطلوبة في ذلك الظرف هي شعر المديح، ولم يكن من الصّعب عليه أن يُطوّع أدواته الأدبية للقول والإبداع في هذا الغرض، وهكذا نرى ابن جُبير ينتظم في سلك الشُّعراء الذين رحلوا إلى عاصمة الموحدين مراكش ليمدح الخليفة في رمضان سنة 564هـ بقصيدة طويلة لم يصل إلينا منها سوى 21 بيتا، مطلعها:

[الكامل]

بُشْرَايَ قَدْ [أَبْصَرْتُ] خَيْرَ إِمَامِ ... فِي حَضْرَةِ التَّقْدِيسِ وَالإِعْظَامِ

أَمَا وَقَدْ أَلْقَتْ إِلَيْهِ [يَدُ] النَّوَى ... فَلأَعْفُوَنَّ جِنَايَةَ الأَيَّامِ

---

(1) رحلة ابن جبير (ص70)، وانظر رحلة العبدري (ص319).
(2) كنز الكتاب (ص.206 ـ 207، 620 ـ 621).

وَلَـوَ أَنَّنِـي شِـئْتُ انْتِـصَاراً لَمْ أَكُـنْ فِـيهنَّ إِلَّا فَاقِـدَ الأَحْكَـامِ
أَنْهَـضْتُ عَزْمِـي فاسْتَطار مُـصَمِّما فَكَـأَنَّنِي أُنْبِـتُّ غَـرْبَ حُـسَامِ[1]

ولابن جُبير أَمداحٌ كثيرة في أمير المؤمنين وسُلطان الموحدين[2]، ولاشَكَّ أَنَّ قصائد المديح التي أنشدها الأديب الشاب أبو الحسين ابن جُبير بقصر الخليفة بمراكش في ذلك التاريخ قد لفتت إليه أنظار الأمراء والسَّادَة الموحِّدين، ويبدو أنه منذ ذلك الوقت بدأ ابن جبير يتعرّف بهم ويتقرّب إلى بعضهم، فَلَمَّا عَيَّنَ الخليفة عبد المؤمن ولده الأمير أبا سعيد عثمان واليا على غرناطة جعل معه ابن جُبير كاتبا له وأمره باصطحاب الأمير إلى المدينة الأندلسية المذكورة، وكان هذا الأمير قد وُلي مدينة سبتة وطنجة قبل ذلك[3].

وقد جاء استيطانُ ابن جُبير غرناطةَ بعد سُكْنَاهُ بشاطبة وجيّان، ذكر المقري ـ نقلا عن صاحب كتاب «الملتمس» ـ أنّ أبا الحسين «نشأ على طريقة أبيه، وتَولّع بغرناطة فسكن بها»[4]، وقال ابن عبد الملك المراكشي إنّ ابن جبير «كتب في شبيبته عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وعن غيره من ذوي قرابته»[5]، لقد كان هذا السَّيِّد واليا على غرناطة، ولكنّا وَجَدْنَا مَنْ مَنَحَهُ رُتْبَةً أعْلَى مِنَ الوَالِي مثل ابن سعيد القلعي الذي ذكر أنَّ ابن جُبير «كتب عن عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة»[6]، ومن الذين أشاروا إلى خدمة ابن جبير لهذا الوالي: ابن الشَّعّار الموصلي الذي بدأ ترجمة الرَّحّالة الأندلسي

---

(1) أعلام مالقة (ص.139 ـ 140).
(2) نفسه (ص.140 ـ 141).
(3) لم يُصبح ابن جُبير كاتبا للأمير أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن إلا بعد أن وُلي هذا مدينة غرناطة. انظر: الاستقصا 3/ 73 (ط. وزارة الثقافة).
(4) نفح الطيب (2/ 487).
(5) الذيل والتكملة (5/ 607).
(6) المغرب في حلى المغرب (2/ 311).

بما يلي: «محمد بن أحمد بن جُبير بن محمد بن جبير، أبو الحسين البلنسي، الوزير الكاتب، وزر لصاحب الأندلس الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن»[1]، ومن المعروف أنّ ابن جُبير كان كاتبا لدى أمير غرناطة، ولكن ابن الشَّعّار يُحَلِّيه هُنَا بالوزير، وقد عثرنا على تخطيط ابن جُبير بالوزير في كتاب «أَلِفْ بَا» لأبي الحجاج ابن الشّيخ البلوي المالقي(ت.604هـ)، قال: أنشدني بعض أصحابنا للوزير الفقيه الحاج أبي الحسن بن الشيخ الوزير أبي جعفر أحمد بن جُبير: [المتقارب]

صَحِبْتُ الزَّمَانَ وَقَابَلْتُهُ ... بِصَبْرٍ جَمِيلٍ إِذَا الخَطْبُ نَابَا

وَكَمْ رَامَ هَضْمِي فَما هَاضَ لِي ... جَنَاحاً وَلَا فَلَّ لِلصَّبْرِ نَابا

كَذَلِكَ كُنَّا قَدِيما إِذَا ... دُعِينَا إِلَى خُطَّةِ الضّيْمِ نَأَبَا[2]

فهل كان ابن جبير كاتباً أم وزيراً؟

كان الأندلسيون يتجاوزون في تحلية الناس بلقب الوزير، وفي معاجم التّراجم نجد عددا من الأعلام يُوصفون بالوزير ولم نقف على ما يُثْبت أَنّهم كانوا فِعْلاً وُزراء، وقد صرّح المقري في «نفح الطيب» بِأَنّ «عادة أهل الأندلس أنَّ الوزير هو الكاتب»[3].

لا نعرف كم بَقِيَ ابن جبير كاتبا لدى والي غرناطة، ولكن يُفهم من ترجمته أنه ظلّ في خدمته إلى حُدود تاريخ رحلته المشرقية الأولى، فقد قال ابن عبد الملك إنّ ابن جبير كَتب عن الأمير المذكور وبعض قرابته «وله فيهم أمداحٌ كثيرة، ثم نزع عن ذلك وتوجّه إلى المشرق»[4].

---

(1) قلائد الجمان (6/ 125).

(2) ألف با (1/ 376).

(3) نفح الطيب (6/ 56).

(4) الذيل والتكملة (5/ 607).

ومِنَ الأسباب التي جعلت ابن جبير يُفكّر في هَجْر خِدمة الأمراء، سُلُوكُ بعض هؤلاء الذي يحيد عن طريق الاستقامة، مثل الأمير أبي سعيد عثمان وَالِي غرناطة الذي كان مُبتلىً بِشُرْبِ الخمر، وقد جرت لابن جبير مع هذا الوالي حادثة كانت سببا في رحيله عن الأندلس، يذكر المقري ـ نقلاً عن ابن الرّقيق ـ أنّ ابن جبير كان «مِنْ أعلام العُلماء العارفين بالله، كتب في أوّل أمره عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا وهو على شرابه، فمدّ يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال: «والله لَتَشْرَبَنّ منها سَبْعاً»، فَلَمَّا رأى العزيمة شرب سبع أَكْؤُسٍ، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مَرّات وصبّ ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأَضْمَرَ أن يجعل كَفّارةَ شُرْبِه الحَجَّ بتلك الدنانير، ثم رغب إلى السيد، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يَحُجّ في تلك السّنة، فأسعفه، وباع ملْكاً تزوّد به، وأنفق تلك الدّنانير في سبيل البِرّ»[1].

وهذا النّص يكشف لنا جانبا من أخلاق ابن جبير، فنحن نعلم أنه نَشَأَ نشأةً مُتْرَفَةً، ومع ذلك لم تُعرف عنه صَبْوة ولا امتدت يده إلى حرام قط، ومن جانب آخر تكشف الرواية عن سلوك أحد السادة الموحدين الذين كانوا عُمّالا على الأقاليم بالأندلس، ويتعلق بشربه الخمر، ولو وقف عند هذا الحد لتحمّل وحدَه وِزْر عَمَلِهِ، ولكنه جاوز ذلك إلى إرغام كاتبه على شربها ومشاركته في الإثم، وهذا مثال في سُوء الخُلُق لا ينبغي أن يصدر عمّن يتولى أمور الناس، والغريب أنّ هذا الذي يتعاطى شُرب الخمر هو أحد أولاد خليفة المهدي محمد بن تومرت الذي طالما كسر أوانيها «وضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل، مُتَشَبِّهًا في ذلك بالصّحابة»[2]، ولكن خَلَفَ من بعده خلْفٌ أضاعوا تلك الخِلال ومكارم الأخلاق، وابتذلوا أنفسهم في شُرْب ما

---

(1) نفح الطيب (2/ 385 ـ 386).
(2) المعجب (ص193).

يُزْرِي بمروءتهم ويجلب عليهم غضب الخالق ﷻ، وقد كانت التّقارير تصل إلى الخليفة عبد المؤمن بأنَّ أولاده يعملون «قبائح الأفعال من الرّاحات والبطالات وأنّهم يشربون الخمر»[1]، وعلى الرغم من أنّ ابن عذاري الذي أورد هذا الخبر قال بَعْدَهُ: إنّ عبد المؤمن أَمَرَ بأن يُجْرى تحقيق في القضية، وأنّ ذلك أفضى إلى عدم وُجود خَمْر، وإِنَّمَا الذي وُجِد «مشروبٌ مطبوخ من رُبٍّ حَلال»[2]، وهذا ضربٌ من الأنبذة التي كانت مستهلكة بكثرة في بعض مناطق المغرب[3]، إلا أنّ رواية مُـؤَرِّخٍ مُوَحِّـدِيّ الهَـوَى لا تصمد أمام شواهد كثيرة تدل على أنّ بعض الوُلاة كانوا يتعاطون للشّراب المحرّم مثل هذا الشّاهد الواضح الذي ذكره المقري في ترجمة ابن جبير، وللأمانة والموضوعية نُشير إلى أنّ بعض الوُلاة الموحّدين كانوا على جانب كبير مِنَ التَّديّن، منهم: وَالِي مالقة أبو محمد عبد العزيز بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالمنتظر[4]، ولعلّ الكاتب ابن عبد ربّه الحفيد أقلع عن شُرب الخمر في الفترة التي قضاها في خِدمة هذا الأمير الورع[5].

إذن، كان ذلك الحادث سببا في خُروج أبي الحُسين ابن جُبير من الأندلس، ولأبي الحسين شِعرٌ في الوُلاة وأحوالهم المتقلّبة، يبدو أنه مِمَّا صَدَرَ عنه بعد حادثة الشّراب التي رواها المقري، إذْ جاء فيه: [السريع]

وِلَايَةُ الإِنْسَانِ سُكْرٌ فَمَا ... دَامَتْ لَهُ دَامَ بِهِ السُّكْرُ[6]

---

(1) البيان المغرب (ص67).
(2) نفسه (ص67).
(3) الرُّبّ: وقع تعريفه في «المنهاج الواضح» بشراب الدّبس، وذكر الماجري أن أبا محمد صالح «توقّف في جواز شرابه، ونَدَبَ الفقراء إلى تَرْكِهِ». (المنهاج الواضح، ص209).
(4) انظر أخبارَه في: المعجب (ص411 ـ 413)، والذيل والتكملة (8/ 235 ـ 236).
(5) محمد بنشريفة، ابن عبد ربه الحفيد (ص38 ـ 39).
(6) الذيل والتكملة (5/ 613).

ولَعَلَّ ابن جُبير كان يقصد والي غرناطة حين قال: [الطويل]

وَلَا تَتَوَاضَــعْ لِلْــوُلَاةِ فَــإِنَّهُمْ مِنَ الْكِبْرِ فِي حَالٍ تَمُوجُ بِهِمْ سُكْرَا

وَإِيَّــاكَ أَنْ تَــرْضَى بِتَقْبِيــلِ رَاحَــةٍ فَقَدْ قِيلَ عَنْهَا إِنَّهَا السَّجْدَةُ الصُّغْرَى[1]

6 ـ رِحْلَتُهُ الأُولَى

جاء في أوّل رحلة ابن جبير أنّه «فصل عن غرناطة أوّل ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان وسبعين وخمسمائة صُحبة أبي جعفر بن حسان»[2]، وبعد أن اجتاز على جيّان لقضاء بعض الأسباب، وصل إلى جزيرة طريف يوم 26 شوال عام 578هـ، وفي اليوم الموالي عبر البحر إلى العدوة المغربية فنزل بقصر مصمودة، وهي بلدة صغيرة تقع في منتصف الطريق بين طنجة وسبتة، ومن القصر سار ابن جُبير إلى سبتة واستقلّ مركباً للروم الجِنْوِيِّينَ كان مُتَوَجِّهًا إلى الإسكندرية. أقلع المركب من سبتة ظُهر يوم الخميس 29 شوال سنة 578هـ[3]، وأَرْسَى بجزيرة سردانية ثم واصل الإبحار حتى «وصل الإسكندرية يوم السبت التاسع من ذي القِعدة الحرام من السنة (578هـ)، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يَوْماً»[4].

وقد أقام ابن جبير بالإسكندرية أياما، يستمع إلى أخبار أهلها، ويتفرّج على آثار بلدتهم العجيبة، ولم يُغادرها إلّا يوم الأحد 8 ذي الحِجّة من العام المذكور، ثم توجّه على ظَهر النِّيلِ إلى قرية طندتا، فوصلها وصلّى بها صلاة عيد الأضحى، ثم تابع السير

---

(1) نفح الطيب (2/ 491 ـ 492)، ورحلة العبدري (ص173).

(2) رحلة ابن جبير (ص.41)، والذيل والتكملة (5/ 596)، والإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 146).

(3) رحلة ابن جُبير (ص.31) ـ طبعة وليام رايت ـ ليدن 1852م.

(4) نفح الطيب (2/ 385).

بَرًّا إلى أن وصل القاهرة يوم الأربعاء 11 ذي الحِجَّة، وكان نزوله بها بفندق أبي الثناء في زُقاق القناديل[1] بمقربة من جامع عمرو بن العاص، وقد مكث ابن جُبير بالقاهرة حوالي شهر، ثُـمّ انفصل عنها صبيحة يوم الأحد 6 محرّم (579هـ) قاصدا ـ عبر نهر النيل ـ مدينة قُـوص، فاجتاز على العديد من قُـرى صعيد مصر قبل أن يصل إلى المدينة المذكورة يوم الخميس 24 محرم (579هـ)، ومنها انْطلق سيراً في البَرِّ إلى عيذاب التي دخلها عشي يوم السبت ثاني ربيع الأول من العام المذكور، وفي يوم الثلاثاء 26 من ربيع الأوّل ركب الجلبة (اسم المركب بلغة أهل عيذاب) للعبور إلى جُـدّة، وكان وصوله جُـدّة يـوم الثلاثـاء 4 مـن شهـر ربيـع الآخـر، وبعـد مُقـام قـصير بهـا تابـع طريقـه سيـرا عـلى الأقـدام إلى مكّـة ـ شرّفها الله ـ فَـدَخَلَهَا مُلبّيا داعيا في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الثاني من سنة579هـ، وطاف بالبيت، وصلى خلف المقام، وتعلّـق بالأستار، وشرب مـن مـاء زمـزم، وسـعى بـين الـصفا والمروة، ثم حمد الله ﷻ على أنْ أكرمه بالوفادة على مكّة المكرّمة، ومَـنَّ عليه بزيارة البيت الحرام زاده الله ﷻ تشريفا وتعظيما.

نزل ابن جبير في مَكّة بدارٍ قرب باب السُّدّة، وظلّ مُقيما بها الشهور التي تَلَتْ تاريخَ حُلوله بِالبلد الأمين، فقضى شهر الصيام، ولما دخل شهر ذي الحِجّة استَعَدَّ لأداء شعائر الحجّ، وقد وفّقه الله ﷻ في تأدية المناسك على أحسن وَجْهٍ، وكانت وقْفة الحُجّاج بعرفات في ذلك العام (579هـ) يوم جُمعة.

---

(1) في هذا الزُّقاق كان نُزول أغلب الأندلسيين الذين أقاموا بالقاهرة، منهم: أبو عبد الله محمـد بـن شُريـح، وأبو بكر ابن العربي، ومحيي الدين ابن عربي، وغيرهم من أعلام الأندلس. ولعلّ هـذا الزُّقَاق هو الذي صار فيمـا بعد يُعرف بزُقَاقِ الأندلسيين. ولنا عن تاريخ هذا الزُّقـاق تـأليف صـغير، نـسأل الله ﷻ أنْ يُوَفِّقَنا في نشره.

وبعد تأدية ابن جُبير للمناسك، وَدّع البيت الكريم ورَحَلَ مع ركب الحاج العراقي إلى المدينة المنورة، وقد أكرمه الله بالوصول إليها، والدخول إلى حرمها المقدّس عشي يوم الإثنين الثالث لمحرم من عام 580هـ، فزار الرّوضة المكرّمة المطهّرة، ووقف بإزائها مُسَلِّماً ولِأَتْرُبِ جنباتها المقدّسة مُسْتلِما، وصلّى بالرّوضة التي بين القبر المقدس والمنبر، كما صلى صلاة المغرب مع الجماعة، وقد صادف ابن جبير بعض فُسحة في تلك الحال، فتمكّن من الغرض المقصود، وفاز بالمشهد المحمود، مُشاهدة قبر النبي ﷺ، والسّلام عليه، وأدّى حقّ السّلام على الصّاحبين صِدِّيق الإسلام وفَارُوقِه، ثم انصرف إلى رحاله مسرورا، ولنعمة الله عليه شاكرا، ولم يبق له أمل من آمال وجهته المباركة ولا وطر إلا وقد قضاه، ولا غرض من أغراضه المأمولة إلا وبَلَغَهُ، وبعد ذلك تفرّغت خواطره للإياب للوطن، وأثناء مُقامه بالمدينة المنورة حرص ابن جبير على زيارة بعض المشاهد المكرّمة، وفي عشي يوم الجمعة السابع من محرم ذلك العام كان وداعه للروضة المباركة والتربة المقدّسة، وفؤاده يكاد ينفطر، وعقله يكاد يطيش، مُتأسِّفا على الفِراق، وكان رحيله من المدينة المنوّرة المكرّمة ضحوة يوم السبت 8 محرم (580هـ) مُتوجِّها إلى العراق، وقد اجتاز بلدات وقرى كثيرة قبل أن يصل إلى الكُوفة، ومنها سار إلى بغداد التي دخلها قبيل عصر يوم الأربعاء 3 صفر عام 580هـ، ثم سافر إلى الموصل فَوَصَلَ إليها يوم الثلاثاء 23 صفر من العام، ثم غادر العراق إلى الشام فبلغ حَلَب ضُحوة يوم الأحد 13 ربيع الأول من العام المذكور(580هـ)، ومنها إلى مدينة حمص التي دخلها مع شُروق شمس يوم الأحد 20 ربيع الأوّل من العام المذكور، ونزل بظاهرها بخان السّبيل، ومكث ابن جُبير بمدينة حمص شهرا كاملا، أي إلى يوم الإثنين 21 ربيع الأول، ثم انطلق إلى دمشق، وكان دخوله إليها يوم الخميس 24 ربيع الأول من العام المذكور، ونزل فيها بدار الحديث غربي الجامع الأموي، ثم انفصل عن دمشق يوم الخميس 5 جُمادى الآخرة (580هـ)

قاصدا عَكّا، فَوَصَلَهَا بَحْراً وحلّ بلدتها صبيحة يوم الإثنين 23 من جمادى الآخرة، وكانت عكّا في ذلك الوقت مجتمع السّفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، وفيها استقلّ ابن جبير مركبا كبيرا كان يروم الإقلاع إلى جزيرة صقلية يوم الخميس 10 رجب، وجرى به المركب في البحر مخترقا لُجَجَهُ حيناً، ومُسْتَسْلِما لما تشتهيه الرياح حينا آخر، وقد صادف ابن جبير في البحر صُنُوفاً من الأهوال، وكابد شتى الأوجال، ولكن لُطف الله ﷻ غيّر الأحوال، ففترت الريح، ولَانَ مَتْنُ البحر، وكان وصوله لجزيرة صقلية في الأيام الأولى من شهر رمضان عام 580هـ، ثم استقلّ زورقا نقله إلى مرسى شفلودي مِنْ مُدُنِ الجزيرة، ومنها سار بَراًّ، وأضحى يوم الخميس بمدينة ثرمة، ثم تابع طريقه في البَرِّ فوصل إلى بَلِرْمْ حضرة صِقلية يوم السبت 16 رمضان من العام المذكور، ثم غادر بَلِرْمْ إلى مدينة اطرابنش، وفي هذه المدينة أمضى عيد الفطر، وكان مُصلاّه في هذا العيد بأحد مساجد طرابنش التي كانت لاتزال تعيش بها طائفة مِنَ المسلمين، وقد طال مُقامه بهذه المدينة إلى ما يقرب من شهرين ظلّ خلالها ينتظر انسلاخ فصل الشتاء وإقلاع المركب الجنوي الذي أمّل رُكُوبَه إلى الأندلس، ولم يأذن الله لهذا المركب بالإقلاع من هذه المدينة إلا صبيحَة يوم الإثنين 21 من ذي الحِجّة عام 580هـ، فوَصَلَ جزيرة سردانية صبيحة يوم الأحد27 من الشهر المذكور، وأقام بها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مُستهلّ محرم من عام 581هـ، ومنها انطلق إلى الأندلس، فوصل مرسى جزيرة يابسة يوم الأحد 11 محرم من العام المذكور، ثم غادرها يوم الثلاثاء 13 من الشهر المذكور في اتجاه ميناء قرطاجنّة التي حلّ بها عشي يوم الخميس 15 من نفس الشهر، وهُنا توقّف ابن جبير طويلا ليشكر الله ﷻ على السّلامة والعافية، وبعد أن صلّى صلاة الجمعة بمسجد قرطاجنّة أخذ طريق البَرِّ إلى غرناطة فوصلها يوم الخميس 22 لمحرم (581هـ)، وكانت مُدّة رحلته، مِنْ لَدُنْ خُرُوجِه من غرناطة إلى وقت إيابه هذا، عامين كاملين وثلاثة أشهر ونِصْفا.

هذا مُلخّص رِحلة ابن جُبير، والنصّ الكامل للرِّحلة مُدوّن منشورٌ منذ زمن بعيد، ومنه استفدنا المحطات الكبرى التي توقّف بها في أسفاره، وقد ضربنا صفحا عن التفاصيل لأنّ مقصودنا في هذه التّرجمة هو الإشارة إلى مَسلك الرِّحْلَة مع التّركيز على الجانب العِلمي في سيرة ابن جبير، وفي هذا الصّدد نُشير إلى أنّ هذه الرِّحلة لم تخل من نشاط عِلْمِيٍّ قام به صاحبها في بعض البلدان المشرقية التي حصلت له بها إقامة، قال ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة ابن جُبير: «ولقي في هذه الرِّحْلَة جماعة من أعلام العُلماء وأكابر الزُّهاد والفضلاء، منهم بمكة ـ شرّفها الله ـ: ضياء الدين بن أحمد بن عبد الوهاب بن علي بن علي بن سكينة، وأبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميانجي، نزيلا مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي، وأبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان، وببغداد: العالم الواعظ المستبحر أبو الفرج ـ وكناه أبو الفضائل ـ ابن الجوزي، وحضر بعض مجالسه الوعظية، وقال فيه: «وشاهدنا رجلا ليس من عمْرو ولا زَيْد، وفي جوف الفرا كلّ الصّيد»، وبدمشق: أبو الحسين أحمد بن حمزة بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن عبد الله بن العباس السلمي ابن الموازيني، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وأبو الطاهر بركات الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني الكاتب ابن أُله، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره، وأبو القاسم عبد الرحمن ابن الحسين بن الخضر بن عبدان، وأبو ا محمد: عبد الرزاق بن نصر بن مسلم النّجار وَالقاسم بن علي ابن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن ابراهيم، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى الربعي التغلبي، وعبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد الصوفي، وأجازوا له، وسمع على بعضهم سوى من ذكر سماعه عليه منهم، والشيخ الفاضل أبو عبد الله المرادي الإشبيلي نزيل دمشق؛

وبِحَـرَّانَ: المتكلم الصوفي العارف أبو البركات حيّـان بن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوه أبو علي عمر»[1].

ولاشكّ أنّ ابن جُبير قد استفاد من هؤلاء الشيوخ عُلُوماً جَمّة، سنرى ـ فيما بعد ـ أنّه لم يتأخّر في بَثِّها بالأندلس بعد الرُّجُوع.

هَا نَحْنُ قد رافقنا ابن جبير في رحلته حتى العودة، وهَا هُوَ الآن في داره الغرناطية أواخر محرم عام 581هـ، ويبدو أَنَّـهُ رجع إلى وظيفته، وأَقْبَلَ على تدريس العِلم، ومِنْ أخباره في هذه الفترة، عرفنا أنّه عكف على انتساخ كتاب «الشِّفَا» للقاضي عِياض، وأَنَّهُ «فرغ من كتابته في عقب شهر ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»، حسبما جاء في آخر السِّفر الأوّل من نُسخة «الشِّفا» التي وصلت إلينا بخطِّ ابن جُبير المحفوظة بمكتبة الحرم المكي (رقم:416)، وتحت العبارة السابقة كتب ابن جُبير ما يلي:«قابلتُه عقيب تاريخ الفراغ من نسخه بالأم المنتسَخ منها، وبأصل كان عليه خطّ مُؤَلِّفِهِ رضي الله عنه، إجازةً لقارئه عليه، وكانت مُقابلتي له بغرناطة حرسها الله وبها كان انتساخه»[2].

ويبدو أنّ شَوْقَ العودة إلى البقاع المقدّسة ظل يجيش في نفس أبي الحسين، وهكذا لم يمض وقت طويل على عودته إلى غرناطة حتى عزم على الرُّجُوع إلى المشرق.

7 ـ رِحْلَتُهُ الثَّانِيَّة

يقول ابن عبد الملك في ترجمة ابن جُبير مُفْصِحاً عن دوافع رحلته الثانية: «ولما شَاعَ الخبر المبهج المسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 596 ـ 597).

(2) محمد المنوني، كتاب «الشِّفَا» للقاضي عياض من خـلال رُواتـه ورواياتـه، مجلـة «المناهـل»، العـدد: 22، 1982م، (ص.394).

الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن بوري رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يوم فتحه يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب ثلاث وثمانين وخمسمائة، كان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته على الرِّحْلَة الثانية، فتحرك لها من غرناطة أيضا يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأوّل من سنة خمس وثمانين»[1]، ولسنا نعرف من أخبار هذه الرحلة الثانية إلا القليل، فبعض المصادر تُورِدُ لابن جُبير القصيدتين اللتين نَظَمَهُمَا خلال هذه الرِّحْلَة: الأولى في مدح صلاح الدين الأيوبي وتهنئته بالنّصر، والثانية يشكو فيها إلى صلاح الدِّين تعسّف بعض رجاله وأُمنائه في مُعاملة حُجّاج بيت الله الحرام، والذي يدل على أنهما مِمَّا صدر عن ابن جبير في هذه الرِّحْلة الثانية أنه يشير في الأولى إلى فتح بيت المقدس، قَالَ: [المتقارب]

فَتَحْتَ المُقَدَّسَ مِنْ أَرْضِهِ ... فَعَادَتْ إِلَى وَصْفِهَا الطَّاهِر

وَجِئْتَ إِلَى قُدْسِهِ المرْتَضَى ... فَخَلّصْتَهُ مِنْ يَدِ الكَافِر

وَأَعْلَيْتَ فِيهِ مَنَارَ الهُدَى ... وَأَحْيَيْتَ مِنْ رَسْمِهِ الدَّاثِر[2]

ويُمكن أنْ نَعُدَّ «رسالة اعتبار النّاسك» التي كتبها ابن جُبير سنة 593هـ، ووَصَفَ فيها مناسك الحجّ وزيارة القدس والخليل، صَدىً خافتا لبعض مَا شاهده في رحلته الثانية، أو تسجيلاً مختصراً لتلك المشاهد، وإنْ كانت ظِلالٌ مِنَ الرِّحْلة الأولى قد بقيت مُخيِّمَةً على بعض فقراتها، مثل ذكره لفساطيط أهل العراق المضروبة ببسيط عرفات، فَهَذَا مِمَّا شاهده ابن جُبير في حَجِّه الأوّل ولم يكن منه شيءٌ في الرِّحلة الثانية، وهذا حديثٌ سابق لأوانه وسَتَرَاهُ في مَكَانِهِ.

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 605 ـ 606).

(2) الذيل والتكملة (5/ 599)، ونفح الطيب (2/ 383).

وقد حرص ابن جُبير على زيارة القدس في هذه الرحلة الثانية، واكتحلت عيناه برؤية المسجد الأقصى الذي أعاده الله للمسلمين بعد عُقود من الاحتلال الصّليبي[1]. ومَا أنْ عَلِمَ بعض طلبة العِلْمِ بوجود ابن جُبير في القُدس حتى سارعوا إلى لقائه للسّماع منه والأخذ عنه، ذكر الغبريني في ترجمة أحد علماء بِجاية وهو علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله (ت.652هـ) أَنَّهُ «سمع ببيت المقدس مِنْ أبي الحسين ابن جبير»[2]، وقد وجدنا أخباراً عن مُقامه بدمشق في هذه الرحلة الثانية منثورة في بعض المصادر التاريخية، ويُستفاد منها أنَّ ابن جُبير تعرّف بدمشق على شيخ الشيوخ تاج الدِّين ابن حمويه السّرخسي، وقد وصلت معرفته به حدّ الصداقة، تدل على ذلك رسائل ابن جبير إليه، كما لقي بها سنة 685هـ بَلَدِيّهُ تاج الدين أبا الحسين محمد بن علي ابن أبي بكر القرطبي الدِّمشقي وسمع منه بعض شعره[3]، وذكر ابن عبد الملك أنّ أحمد بن محمد العبدري الأبّذي رحل إلى المشرق وأدّى فريضة الحجّ وأخذ بمكّة ـ شرّفها الله ـ عن بعض علمائها، ثم انتقل إلى دمشق وأخذ بها عن عدد من الشيوخ سَمَّاهُم، ثم قال: «وصحب هنالك أبا الحسين محمد بن أحمد بن جُبير»[4]، كما يذكر الذّهبي أنّ أسد بن أبي الطّاهر لقي ابن جُبير بدمشق ورَوَى عنه بعض شعره[5].

ويغلب على ظَنّي أنَّ ابن جُبير قَيَّدَ تَنقّلاته في هذه الرحلة الثانية حسبما يظهر من كلام ابن عبد الملك المراكشي والمقري التلمساني، ولعلّ ابن الخطيب كان ينقل من هذه

(1) والشيء بالشيء يُذكَر، ونحن في هذا المقام نرفع أيدينا إلى السّماء ونسأل الله ﷻ أن يُحرِّرَ مدينة القُدس من أيدي اليهود الغاصبين، وأنْ يُعيدها دارَ إسلام كما أعادها أوّل مرّة، كما نسأله ﷻ أن يَمُنّ علينا بزيارتها ويرزقنا صلاةً في مسجدها الأقصى.

(2) عنوان الدراية (ص.138).

(3) قلائد الجمان (6/ 125ـ 133).

(4) الذيل والتكملة (1/ 376 ـ 377).

(5) تاريخ الإسلام (13/ 418).

التقييدات حين قال: «قال ابن جبير في كتاب «الرِّحْلَة» له: كان فتح بيت المقدس الفتح الثاني على يد الملك الفاضل صلاح الدين بن أيوب، رحمه الله ونفعه، يوم الجمعة لثلاث بقين من رجب الفرد سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»[1].

ويَدُلُّ هذا النّقل ـ الذي يخلو منه نصّ الرِّحلة الأولى ـ على أنّ ابن جُبير كانت له تقييدات عن الرِّحلة الثانية، ولكن ـ على ما يظهر ـ لم تجد من يجمعها مثلما حصل مع تقييدات الرحلة الأولى، ومن هُنا نلمس القيمة الكبيرة للعمل الذي قام به جامع الرِّحلة الأولى. قال ابن جُبير عن هذه الرِّحْلة الثانية: «وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى ﷺ وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد مُتَوَجِّهاً وفي شهر واحد مُنْصَرِفاً»[2].

وقد رجع ابن جُبير إلى الأندلس ووَصَلَ إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سبع وثمانين وخمسمائة (587هـ)[3].

8 ـ تَنقُّلَاتُه في المغْرِبِ والأنْدَلُسِ (587هـ ـ 601هـ)

ذكر ابن الخطيب أنّ أبا الحسين ابن جبير «سَكَنَ غرناطة، ثُمّ مالقة، ثُمّ فاس، ثُمّ سبتة»[4]، ويظهر من هذا الكلام أنَّ ابن جُبير بعد عودته من الرحلة الثانية آثر الاستقرار بغرناطة حيث داره وأهله ووظيفته، وعلى ذِكْرِ الوظيفة، فإنّ ابن جُبير لم يرجع ـ على ما يبدو ـ إلى عَمَلِهِ كَاتِباً لوالي غرناطة وإنّما استقال مِنْ هذه الخُطّة وانصرف إلى التدريس حسبما يُفهم من ترجمته التي حرّرها ابن عبد الملك المراكشي،

(1) أعمال الأعلام (1/ 302).
(2) الذيل والتكملة (5/ 605 ـ 606).
(3) نفسه (5/ 606).
(4) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 147).

قال: «وفي أثناء المدّة التي بين قُفوله مِنَ الرِّحْلَة الثانية ورحلته الثالثة، سكن غرناطة ثم مالقة ثم فاس ثم سبتة، مُنقطعا إلى إسماع الحديث والتّصوف وتَرْوِيَة مَا كان عنده»[1].
ولم يُشِر المؤرخون إلى شيء مِنْ خدمته لوالي غرناطة بعد سنة 585هـ.

وسَيْراً على خَطِّ تنقّلات ابن جُبير الذي رسمه ابن عبد الملك المراكشي وابن الخطيب الغرناطي، فإنّ ابن جبير سَيُغادر غرناطة إلى مالقة، وقد سَجَلَّ ابن عسكر حُلوله بهذه المدينة فقال: «سَكَنَ مالقة وأقام بها مُدَّةً»[2]، وأَظُنُّ أنَّ ابن جُبير كَانَ يتردّد على هذه المدينة منذ أنْ سكنها صهره أبو جعفر الوقّشي في العهد المردنيشي، أمّا استقراره بها مع عائلته فَلَمْ يأتِ إلا بعد رحلته الثانية، وقد أشار ابن عبد الملك إلى سُكناه مَالَقَة فقال:«أقام أثناء ذلك بسبتة ومالقة وغيرهما حسبما اقتضته الأحْوال»[3].

ويبدو أنّ هذه الأحوال كانت في مُعظمها مطبوعة بالتَّغَيُّر والتَّفَكُّر، وقد زادتها الفواجع التي حلّت بأُسْرَتِهِ دَفْعاً بابن جُبير في اتجاه القرار الذي اتخذه فيما بعد وهو: الرّحيل عن الأندلس والمغرب بِنِيّة اللاَّرُجُوع.

لم تكن إقامة ابن جبير بمالقة طويلة، فلم يلبث أنْ غادرها ونَزَلَ بِعِيَالِه وزوجه إلى العُدْوَة المغربية وسَكَنَ مدينة فاس، وقد سَجَّلت كُتب التّاريخ حضوره بفاس سنة(593هـ)[4]، وأشار ابن القاضي إلى دُخوله فاس فقال: «ثم انتقل إلى مدينة فاس وباع أملاكه وانفصل بجُملته، فَمَاتَ أهله ووَلَدُهُ بفاس»[5]، وقول ابن القاضي عن ابن جُبير: «مات أَهْلُه ووَلَده بفاس»، كَلامٌ تنقصه بعض الدِّقة، والصحيح أنّه لم يَمُتْ لابن

(1) الذيل والتكملة (5/ 606).
(2) أعلام مالقة (ص138).
(3) الذيل والتكملة (5/ 596).
(4) نفسه (5/ 604).
(5) جذوة الاقتباس (1/ 278).

جُبير بفاس إلا ولدٌ واحدٌ، ويُستفاد من القصيدة التي رَثَاهُ بها وَالِدُه، أنّه كان يُسَمَّى أحمداً، باغته وباء الطاعون فوضع ـ بإذن الله ﷻ ـ نِهَايَةً لِحَيَاتِهِ، ولَهُ من العمر 24 سنة، وقد كان شاباً وَسِيماً، مُقْبِلاً على الزّواج، تجمّعت فيه أوْصَافٌ وخِلال يتمنّاها كل امرئ لأولاده: فقد كان دُرّة عائلته («وُسْطَى عِقد آل جُبير» بتعبير والده)، رُزق قبولا من كل الناس الذين عرفوه، وكان بارّا بوالديْه، وَصُولا للقَرابة، جاريا لمرضاتهم، بريئا من العُجْب، جواداً، كريمَ النّفس، حريصا على نيْل المعالي، مُحِبّاً في مُطالعة الكُتُب، وله حظ في الأدب: «يُفَتِّقُ زَهْرَ النَّثْرِ فِي الطِّرْسِ يَانِعاً ۞ وَيَنْظُمُ دُرَّ الشِّعْرِ نَظْماً بِلاَ تَعَبِ» على حَدِّ تعبير والده أبي الحسين. وإِنِّي لَا أَرَاهُ قد تَعَدّى الحقيقة في كُلِّ مَا ذَكَرَ، فالدُّرُّ من مَعْدِنِهِ كَمَا يُقَالُ، والوَلَدُ نُسْخَةُ أبيه كما في عُرْف البُيُوتَات النّبيهة، ولم يزل هذا الولد مُعَزًّا من لدن كُلّ الناس لهديه الجميل وعقله الرّاجح إلى أن قضى الله بوفاته، ولا مَرَدّ لقضاء الله.

لا شَكَّ أنَّ فُقدانَ مَنْ كانت هذه أوصافه يُعَدُّ خسارة، يبكيه البُعَدَاء ويتحسّر على فَقْدِهِ مَنْ لا يعرفه، أَمَّا حَسْرَة وَالِدَتِهِ ووَالِدِهِ، وبُكاؤهما عليه، فقد فَاقَا كُلَّ الحدود، فهو الولد الوحيد لديهما، لم يرزقهما الله غيره[1]، يقول أبو الحسين ابن جُبير في رثائه واصفاً حَالَهُ وحَالَةَ زَوْجِهِ السَّيِّدة أُمِّ أحمد: [الطويل]

وَمِنْ أَجْلِ ما بِي أَبْدَتِ الشَّمْسُ بِالضُّحَى	شُحُوبَ ضَنًى قَبْلَ الجُنُوحِ إِلَى الحَجْبِ
عَلَى وَاحِدٍ قَدْ كَانَ لِي فَفَقَدْتُهُ	عَلَى غِرَّةٍ فَقْدَ الجَوَانِحِ لِلْقَلْبِ
فَحُزْنِي عَلَيْهِ جَاوَزَ الحَدَّ قَدْرُهُ	وَلَا حُزْنَ يَعْقُوبٍ، وَيُوسُفُ فِي الجُبِّ
وَأَكْثَرُ إِشْفَاقِي لِأُمٍّ حَزِينَةٍ	مُقَسَّمَةٍ بَيْنَ الأَسَى فِيهِ وَالحُبِّ

(1) هذا ما يُستفاد من قول ابن جُبير (البيت 2): على واحدٍ قد كان لي فَفَقَدْتُهُ. (والله أعلم).

وَأَذْهَلَهَا عَنْ حَالِهَا فَرْطُ وَجْدِهَا عَلَيْهِ وَقَدْ يُسْتَسْهَلُ الصَّعْبُ لِلصَّعْبِ
بُنَيَّ أَجِبْهَا فَهْيَ تَدْعُوكَ حَسْرَةً وَأَدْمُعُهَا تَنْهَلُّ غَرْباً عَلَى غَرْبِ[1]

وبعد قليل سوف تلتحق هذه الأم الحزينة بِوَلَدِهَا أحمد، هكذا شاء الله، ولا مَرَدّ لمشيئة الحكيم الخبير.

أمّا أبو الحسين ابن جبير، فَقَدْ رضي بقدر الله، وسَلَّمَ بقضائه، ولعلّه وَجَدَ في سيرة المصطفى ﷺ مِثالا هاديا وبَلْسَما شافيا للجراح التي سَبّبها موتُ ولده، ففي فاس عثر ابن جبير على نُسخة عتيقة من كتاب «الشِّفَا» بِخَطِّ يَدِ مُؤَلِّفِهِ، فينتهز الفرصة ليقابل عليها نُسخته التي كان قد انتسخَها بغرناطة سنة 583هـ، جاء في مخطوطة الحرم المكي المشار إليها آنفا: «ثم قابلته بمدينة فاس ـ حرسها الله ـ بالأم العتيقة الذي كان أكثرها بِخَطِّ المؤلف رضي الله عنه، وهي مُبيّضته التي حرّرها وأظهرها، وقُرئت عِدّة مرّات عليه، وكانت هذه المقابلة الأخيرة في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وعلى آله الطاهرين، وسلامه عليهم أجمعين»[2].

وأثناء مُقامه بفاس كان ابن جُبير يتردّد على مدينة مراكش عاصمة الدّولة الموحدية، وقد سَجّلت بعض المصادر التاريخية حضورَه بمراكش يوم وفاة أبي الوليد ابن رشد القرطبي سنة 595هـ[3]، ونُشير هنا إلى أنَّ أبا الحسين ابن جبير لم يكن له رأي حسن في فيلسوف قُرطبة، والأشعار التي قالها في ابن رشد وفي نكبته وفي ذَمِّ أهل الفلسفة عموما واضحة الدّلالة على ذلك[4].

---

(1) أعلام مالقة (ص147).
(2) محمد المنوني، كتاب «الشفا» للقاضي عياض من خلال رُوّاتِه ورِوَايَاتِه، مجلة المناهل، العدد: 22، (ص.395).
(3) الفتوحات المكية (1/ 235).
(4) الذّيل والتّكملة (5/ 611 ـ 612) (6/ 30 ـ 31).

وبَعْدَ فاس انتقل ابن جبير إلى مدينة سبتة وسَكَنَهَا، قال ابن القاضي: «وكتب بسبتة عن عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن أميرها»[1]، وهذا القول قد يُوقِع القارئ في الوَهْم لأنّ الأمير عُثمان بن عبد المؤمن الذي تَوَلَّى سبتة هو الذي صار فيما بعد وَالِياً على غرناطة[2]، ونحن نستبعد أن يكون ابن جُبير قد بقي يعمل معه إلى تاريخ سُكناه بسبتة، وقد ذكرنا أَنَّهُ لم يَعُدْ منتظما في سلك الوظيفة بعد عودته من رحلته الثانية، وأنّه أَقْبَلَ على التدريس والإقراء، ومهما يكن من أمر، فخارج نطاق العمل الوظيفي كان ابن جبير يفسح بعضا من وقته لطلاب الأدب، ففي سبتة لَقِيَهُ الشّريشي شارح «مقامات الحريري» وأَخَذَ عنه[3]، كما أَنَّ عِشْقَ ابن جُبير للرِّوَايَة والإسناد دفع به إلى البحث عن شيوخ العلم بالمدينة مِمَّن عَلَتْ رواياتهم، وقد وَجَدَ ضالّته في شيخ مُسِنٍّ يحمل عن القاضي عياض مُباشرة، ذكر ابن عبد الملك أنّ ابن جُبير: روى «بسبتة عن أبي عبد الله ابن عبد الله بن عيسى التّميمي السبتي»[4]، ويُعَيِّنُ المقّري مروياته عنه فيقول: إنّ ابن جُبير «حَدَّثَ ـ رحمه الله تعالى ـ بكتاب «الشِّفاء» عن أبي عبد الله محمد ابن عيسى التميمي عن القاضي عياض»[5]، والشيخ المذكور مِنْ تلاميذ القاضي عياض النُّبهاء، ترجم له ابن الأبّار فقال: «محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن حسين التّميمي، من أهل سبتة، يكنى أبا عبد الله، روى عن أبيه، وعن أبي الفضل ابن عياض وغيره، وعُمِّر وأسنّ، حدّث عنه أبو الحسين بن جبير الزّاهد»[6]، وبسبب هذه الرواية العالية أصبح ابن جُبير مَقْصِدَ العديد من عُلماء المغرب والمشرق.

---

(1) جذوة الاقتباس (1/ 278).

(2) لم يُصبح ابن جُبير كاتبا للأمير أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن إلا بعد أن وُلِّيَ هذا مدينة غرناطة. انظر: الاستقصا 3/ 73 (ط. وزارة الثقافة).

(3) الذيل والتكملة (1/ 268 ـ 269).

(4) نفسه (5/ 596).

(5) نفح الطيب (2/ 489).

(6) التكملة (2/ 159).

وفي هذا التاريخ الذي اختار فيه ابن جُبيْر سُكنى مدينة سبتة (595هـ ـ 600هـ)، كان قد تفرّغ كُلِّيًّا للعبادة، وصُحْبة الزُّهَّادِ أهل الآخرة، وخلال الفترة المذكورة انتقل إلى إشبيلية وصَحِب بها الزّاهد أبا عمران الميرتُلي، وقد ذكر المقري ـ نَقْلاً عن صاحب كتاب «الملتمس» ـ أنّه قال: «وتذاكرنا يوما معه (يعني ابن جبير) حالةَ الزاهد أبي عمران المارتُلي، فقال: صَحِبْتُه مُدّة فَمَا رأيت مثله، وأنشدني شِعْرَيْن ما نسيتهما ولا أنساهما مَا استطعت»[1]، وتاريخ هذا اللِّقاء كان عام (598هـ أو 599هـ)[2].

وفي سبتة ستحُلّ بابن جبير الفاجعة الثانية، وهي التي كانت سببا في رحلته الثالثة، قال ابن عبد الملك: «وكانت رحلته الثالثة مِنْ سبتة بعد وفاة زوجه الفاضلة عَاتِكَة المدْعُوَّة بِأُمِّ المجد، ابنة الوزير الحسيب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقّشي، بِأَيَّامٍ، وكانت وفاتها يوم السبت ـ رحمها الله ـ لعشر خلون من شعبان أحد وستمائة، بعد زَمَانَةٍ طَاوَلَتْهَا مُدَّةً، ودُفنت يوم الأحد بَعْدَهُ، وهو اليوم الحادي عشر من الشّهر»[3].

ونحنُ نُحِسُّ بمرارة الفِراق وألم الحسرة التي أصابت ابن جُبير على وفاة زوجه في شيئين: الأوّل قوله: «ومِن عجائب اتفاقات الأقدار الباعثة على الاعتبار أنْ كان تجهيزها إليّ بجيان في الحادي عشر من شعبان سبعين وخمسمائة، فوافق تجهيز الحياة تجهيز الممات، وليلة القبر تُنسي ليلة العرس، فيا لها من لَوْعَةٍ وحُرْقَة، ولكل اجتماع من خليلين فُرْقَة»[3].

---

(1) نفح الطيب (3/ 296).

(2) توفي أبو عمران الميرتُلي عام 604هـ، وله من العمر 82 سنة (التكملة 2/ 181)، ويُستفاد من الشِّعر الذي رواه عنه ابن جُبير ـ وسنأتي على إيراده بعد قليل ـ أنه لقي الزاهد الميرتلي وعمره 77 سنة. ومن هُنا فاللِّقاء بينهما يكون قد تمّ في التاريخ الذي أوردناه أعلاه.

(3) الذيل والتكملة (5/ 606).

والشَّيء الثاني هو أنَّ ديوانَه الشِّعري ـ المفقود الآن ـ كان يَضُمُّ جُزءاً سَمّاهُ: «..«نتيجة وَجْد الجوانح في تأبين القرين الصّالح»، أوْدَعَهُ قِطَعاً وقصائدَ في مراثي زوجه أُمِّ المجد المذكورة، بعد وفاتها والتوجّع لها أيّام حياتها، تزيد بُيوته على ثلاثمائة»[1]. ويَدُلُّ وصف ابن جبير لها بالقرين الصالح، وتخصيصه قِسْماً من ديوانه لمراثيه فيها، على أنّه كان يُحِبُّ زوجته حُباًّ عظيما، وقد عبّر ابن الخطيب عن هذا فقال: «وكان كَلِفاً بها فَعَظُمَ وَجْدُهُ عَلَيْهَا»[2].

وهكذا كُتِب على أبي الحسين ابن جُبير أنْ يَفْقِد ـ في ظرفٍ وَجيزٍ ـ أعزّ ما لديه، إنْ لم يكن كُلّ ما لديه، فقد مَاتَ الذين يُعاش من أجْلهم: ولده الوحيد أحمد، وزوجه قرينه الصالح عاتكة أُمّ المجد، وقد كانت هذه الفواجع سَبَباً في دفع ابن جبير إلى الرّحيل عن الأندلس والمغرب والتَّوجّه إلى المشرق للمرة الثالثة، ولكن هذه المَرَّة بِنِيَّةِ اللاَّعَوْدَة.

وابن جُبير الذي كان يُحِبُّ بلده الأندلس كثيرا، وقد عبّر عن هذا الحبّ في غير مَا قصيدة، مِنْ ذلك قوله: [البسيط]

لِي نَحْوَ أَرْضِ المُنَى مِنْ شَرْقِ أَنْدَلُسِ ... شَوْقٌ يؤلِّفُ بَيْنَ المَاءِ والقَبَسِ[3]

وهو القائل: [الطويل]

سَقَى الله بابَ الطّاق صَوْبَ غمامة ... ورَدَّ إلى الأوْطَانِ كُلَّ غريبِ[4]

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 608).
(2) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 147).
(3) نفح الطيب (2/ 489).
(4) المصدر نفسه (2/ 386).

وهو القائل ناصِحاً: [مجزوء الرجز]

لَا تَغْـــتَرِبْ عَـــنْ وَطَـــن وَاذْكُـــرْ تَـــصَارِيفَ النَّـــوَى
أَمـــا تَـــرَى الْغُـــصْنَ إِذَا مَـــا فَـــارَقَ الأَصْـــلَ ذَوَى[1]

تَغَيَّر طَبْعُه بعد فُقدانه لأَحِبّائِه، وعَادَ يقولُ: [الكامل]

لَا يَـــسْتَوِي شَرْقُ الْـــبِلَادِ وَغَرْبُـــهَا الـشَّرْقُ حَـازَ الْفَـضْلَ بِاسْتِحْقَاقِ
انْظُـرْ لِـحَالِ الـشَّمْسِ عِنْـدَ طُلُوعِـهَا زَهْـرَاءَ تَـصْحَبُ بَهْجَـةَ الإِشْرَاقِ
وَانْظُـرْ لَـهَا عِنْـدَ الْغُـرُوبِ كَئِيبَـةً صَـفْرَاءَ تَعْقُـبُ ظُلْمَـةَ الآفَـاقِ
وَكَفَـى بِيَـوْمِ طُلُوعِهَـا مِـنْ غَرْبِهَـا أَنْ تُـؤْذِنَ الـدُّنْيَا بِوَشْـكِ فِـرَاقِ[2]

---

(1) نفح الطيب (2/ 382).

(2) الذيل والتكملة (5/ 610 ـ 611)، وأَظُنُّ أنّه كان يعني بالشّرق: بلاد المشرق العربي، لكن الغبريني نقل عن أبي بكر ابن سيد الناس أن شيخه ابن جبير أنشد الأبيات «يُفَضِّلُ المشرق من الأندلس على المغرب». (عنوان الدراية، ص.80)، فهو في هذا كابن حزم الذي قال عند خروجه من إشبيلية:

أنـا الـشّمْسُ في جَـوِّ العُلـوم مُنـيرة ولكـن عيْبـي أنّ مطْلعـي الغَـرْب

(فهرسة ابن خير، ص.417ـ418). وحتى إنْ صحّت رواية أبي بكر بن سيّد الناس، فإنها تصحّ أيضا إذا وسّعنا الدائرة، فثمة فيما كتبه ابن جبير شواهد تدل على أن نفسه كانت قد جنحت إلى تفضيل المشرق على الأندلس والمغرب لاسيما بعد موت ولده وزوجه، وقد ظهر هذا الميل واضحا في «رسالة اعتبار الناسك» التي كتب بها إلى أبي الحسن ابن مقصير ـ وهو من أهل بلنسية كُبرى مدن شرق الأندلس ـ، يقول في الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة مخاطبا صديقه المذكور:

«فإذا قضيتَ بحول الله ﷻ وقوته من زيارة تلك الآثار المقدّسة أربك فلا تذكر بعدها مغربك،... وألقِ فيه عصا تسيارك، وقر عينا بمآل اختيارك، وأقم بقية عمرك فيه مستوطنا».

فالخطاب هنا صادر عن ابن جبير إلى صديقه الذي كان قد وصل إلى المشرق، ومن جُملة ما نصحه به أنْ لا يرجع إلى المغرب: «فلا تذكر بعدها مغربك». لاشكّ أنّ ابن جبير كان يُعَبِّرُ عما يختلج في نفسه، وعما يرجو تحقيقه. ولذلك لما خرج إلى المشرق في الرِّحلة الثالثة لم يرجع إلى المغرب والأندلس.

فخرج إلى المشرق سنة 601هـ، ولم يرجع بعد هذا التاريخ إلى المغرب.

وحتى تاريخ هذا الخُروج الأخير كان ابن جبير قد خلّف عددا من التلاميذ، واستفاد منه عدد من طلبة العلم بالمغرب والأندلس والمشرق، فيما يلي لمحة عن إسهامه في التّدريس وتنْشئة أجيال من العُلماء.

9 ـ تَلَامِيذُهُ

ذكر ابن عبد الملك المراكشي أنّ ابن جُبير كان مُتصدّرا للإقراء والتّدريس، لاسيما «في أثناء المدة التي بين قُفوله من الرّحلة الثانية ورحلته الثالثة، سكن غرناطة ثم مالقة ثم فاس ثم سبتة مُنْقَطِعاً إلى الحديث والتَّصوّف وتَرْوِيَةِ ما كان عنده»[1]، وكان من نتائج هذا أنْ تَخَرَّجَ عليه عدد من أعلام المغرب والأندلس، كما خلّف عددا من التلاميذ بالمشرق خلال رِحْلَتَيْهِ الأولى والثانية، قال ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة ابن جُبير: «رَوَى عَنْهُ أَبَوَا إسحاق: ابن مهيب وابن الواعظ، وأبو تمام بن إسماعيل، وأَبَوَا الحسن: ابن أبي نصر فاتح بن عبد الله البجائي، مقيم ببعض بلاد المشرق، وابن محمد الشَّارِّي، وأبو سليمان ابن حَوط الله وأبو زكرياء، وأبو بكر يحيى بن عبد الملك ابن أبي الغصن، وأبو عبد الله ابن حسن بن مجبر، وآباء العباس: ابن عبد المؤمن[2]، والنباتي، وابن محمد بن حسن اللواتي ابن تامتيت، وابن محمد المورووري، وأَبَوَا عمرو: ابن سالم، وعثمان بن سفيان بن عثمان بن الشّقر التميمي التونسي.

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 606).

(2) أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي هو شارح «مقامات الحريري»، وفي شرحه هذا ينقل عن رحلة شيخه ابن جبير مُقَدِّما لذلك بما يلي: «وذَكَرَ شيخنا أبو الحسن بن جُبير في رحلته:...».(شرح مقامات الحريري (1/ 120ـ 121)، وذكر ابن عبد الملك في ترجمة الشّريشي أنه روى عن ابن جُبير بمدينة سبتة. (الذيل والتكملة 1/ 268 ـ 269).

ومِمّن روى عنه بالإسكندرية: رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن الحسين الجذامي، واستجازه أبو إسحاق ابن الواعظ لجماعة من أصحابه برغبتهم إليه في ذلك، منهم: شيخانا أبو علي الحسن ابن أبي الحسن علي الماقري الكفيف، وأبو محمد حسن بن أبي الحسن علي بن القطان، فأجاز لهم، ولم يزل يُرْوى عنه ويُسْمع منه ويُسْتجاز من البلاد حيث ما حلّ.

وممن روى عنه بمصر: رشيد الدين أبو الحسين يحيى بن علي بن عبد الله بن علي بن مفرج القرشي ابن العطار، وفخر القضاة ابن الجبَّاب وابنه جمال القضاة وعزّ القُضاة»[1].

ومن تلاميذه أيضا: أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملاحي[2]، وأبو علي عمر بن يوسف بن عنبسة[3]، وأبو بكر ابن سيد الناس[4].

10 ـ رِحْلَتُهُ الثَّالِثَةُ

قال ابن عبد الملك في ترجمة ابن جُبير: «وكانت رحلته الثالثة مِنْ سبتة بعد وفاة زوجه الفاضلة عاتكة المدعوة بأم المجد، ابنة الوزير الحسيب أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقّشي، بأيام، وكانت وفاتها يوم السبت ـ رحمها الله ـ لعشر خلون من شعبان 601هـ»[5]، وذكر ابن الخطيب أنّ ابن جُبير «وَصَلَ مَكّةَ، وجَاوَرَ بها طويلا، ثم بيت المقدس، ثم تجوّل بمصر والإسكندرية، فأقام يحدّث ويُؤْخَذُ عنه إلى أنْ لحق بِرَبِّهِ»[6].

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 606 ـ 607).

(2) نفسه (6/ 413 ـ 414).

(3) نفسه (5/ 472 ـ 473).

(4) عنوان الدِّرَايَة (ص.80).

(5) الذيل والتكملة (5/ 606).

(6) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 147).

وقد لقيه الحافظ المنذري بمصر ورَوَى عنه، قال في ترجمة ابن جُبير: «حَدّثنا عن أبيه، وعن الحافظ أبي الوليد يوسف بن عبد العزيز ابن الدّباغ بالإجازة منهما، وحدثنا عن غيرهما، سمعت منه بمصر وبجزيرة فُوّة»[1]. ومصر هُنا هي القاهرة المدينة المشهورة، أما جزيرة فُوَّة فهي «بُليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد، بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو سِتّة، وهي ذات أسواق ونخل كثير»[2].

وقد أقام ابن جُبير بعض الوقت بدمياط[3]، ثم أوى أخيرا إلى الإسكندرية، وشَرَعَ يُقْرِئُ النّاس «بمسجده بِحَارَةِ رُوبَةَ»[4]، وفي هذا المسجد لَقِيَهُ أبو الوليد إسماعيل بن عبد الله بن إسماعيل البيّاسي وروى عنه بعض شعره[5]، ومِنَ الذين أخذوا عن ابن جُبير بالإسكندرية وحملوا عنه بعض نثره وشعره: الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد السبتي الحميري لقيه بها سنة 611هـ[6]، والفقيه أبو موسى عيسى بن سلامة الإسكندري[7]، وأبو عمرو بن الشقر[8]، وأبو العباس ابن الرومية الإشبيلي لقيه بها سنة 612هـ أو 613هـ[9].

كان ابن جُبير ـ كما سبق أنْ ذكرت ـ يَرْوِي كتاب «الشِّفَا» للقاضي عياض مِنْ طريق عالية، ولذلك لَمّا حَطَّ رحاله بمصر تجمّعَ حوله العديد من المصريين للأخذ عنه، قال الذّهبي: «روى عنه الزّكي المنذري، والكمال ابن شجاع الضرير، وعبد الرحيم بن

(1) التّكملة لوفيات النَّقَلة (2/ 407).
(2) معجم البلدان (4/ 280).
(3) تاريخ الإسلام (13/ 418)
(4) قلائد الجُمان (6/ 125 ـ 133).
(5) نفسه (6/ 125 ـ 133).
(6) رحلة العبدري (ص217).
(7) تراجم مغربية (ص112).
(8) رحلة العبدري (ص 172).
(9) الذيل والتكملة (1/ 490)، والإحاطة في أخبار غرناطة (1/ 85 ـ 86).

يوسف المخيلي، وأبو الطاهر إسماعيل بن هبة الله المليحي، وآخرون»[1]. وذكر المقّري أنّ ابن جُبير: «حدّث ـ رحمه الله ـ بكتاب «الشِّفَا» عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض، ولما قَدِمَ مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي»[2]، وقد سَمَّى تقي الدِّين الفاسي عدداً من المشارقة الذين رَوَوْا كتاب «الشِّفَا» لعياض عن أبي الحسين ابن جُبير، وهم: زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، ورشيد الدين يحيى بن علي ابن عبد الله ابن العطار القرشي، والتاج القسطلاني علي بن أحمد بن علي القيسي المصري ثم المكي، والكمال علي بن شجاع بن سالم العباسي الضّرير، ومعين الدين عبد الهادي بن عبد الكريم القيسي[3].

ومِنَ الذين يَرْوُونَ عنه كتاب «الشِّفَا»: القاضي عَلَمُ الدِّين محمد بن الحسين بن عتيق ابن الحسين بن رشيق الرّبعي القاهري[4]، وأبو محمد الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلي الدّاري[5]، ومحمد بن إبراهيم التلمساني[6].

ويُضاف إلى هذه الأسماء عُلماء آخرون وردت أسماؤُهم في نصِّ السّماع المثبت في أصل ابن جبير من كتاب «الشِّفَا»، حيثُ يوجد المجلد الأوّل منه ضمن مخطوطات الأوقاف ببغداد رقم 2950، وعليه سماع مكتوب بخَطٍّ شرقي نسخي، وموقّع بخط

(1) تاريخ الإسلام (13/ 418).

(2) نفح الطيب (2/ 489)، المقفى الكبير (5/ 152).

(3) تقي الدِّين الفاسي، العقد الثمين (6/ 44). مطبعة السُّنة المحمدية. القاهرة (د.ت).

(4) ابن سيد الناس، عُيون الأثر، ط. دار المعرفة، بيروت (د.ت)، (2/ 347).

(5) ورد ضمن سَنَدِ رواية «الشِّفَا» عند الفقيه السّراج. مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط رقم 407 ق، ص.3. (نقلا عن مقالة محمد المنوني).

(6) أَتَى اسمه خِلال سَنَدِ «الشِّفَا» الموجود بإحدى النُّسَخِ الخَطِّيّة من الكتاب، انظر مقالة الشيخ محمد المنوني المنشورة في مجلة المناهل: العدد 19.

ابن جبير - على الطريقة الأندلسية - عام(613هـ)، وفي هذا التاريخ - كما هو معلوم - كان ابن جُبير مُقيما بمدينة الإسكندرية، وها هو نصّ السّماع:

«سمع جميع هذا التصنيف على الشيخ الفقيه الإمام العالم، بقية السلف الصالح أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني ﵁، وأدام مدته، بقراءة الشيخ الفقيه العالم جمال الدين أبي الفضل عبد الصمد بن أبي علي الحسين بن يوسف الأصبحي: الشيخُ الفقيه الزّاهد أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخيمي، والفقيه أبو حفص عمر بن علي ابن أبي سعيد [...] الكسي، والفقيه المؤدب عبد الوهاب بن طاهر بن إبراهيم الحاسب، والفقيه محمد بن أحمد الشاطبي، والفقيه عبد النصير بن علي بن عبد المحسن الهمداني، والفقيه أبو المنصور عبد الوهاب بن أبي الفضل اللّخمي، والفقيه مُفرج بن محمد بن مُفرج النباتي، والفقيه أبو الفُتوح [...] بن سند بن سيف السّعدي، وولد أخته أبو الفتوح منصور بن سليمان بن معمر اللخمي البياضي، وهبة الله بن محمد بن الحسين بن مفرج ابن حاتم المقدسي: كاتب هذا السماع المذكور فيه، وريحان مولاه الحر مُسلم.

ومَنْ سَمِعَ الأَكْثرَ وفَاتَهُ البعضُ، وأَجَازَ لهم الشّيخ الفقيه المسمِّع المذكور أنْ يَرْوُوا عنه ما لم يسمعوه بالإجازة المعتبرة بين أهل العلم: الفقيه المؤدب مظفر بن رسلان ابن عنان [...]، وعبد الرحمن بن محمد الجرخي، وولد أخته علي بن حسين بن إسماعيل الأزدي.

وذلك في عِدّة مجالس آخرها الحادي والعشرون من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وستمائة، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله، وسلامه...».

ويلي هذا النّص توقيع ابن جبير بِخَطِّهِ الأندلسي هكذا: «**صحيحٌ ذلك، وكتب محمد ابن أحمد بن حسين بن محمد بن جُبير الكناني، وبالله التوفيق**»[1].

---

(1) محمد المنوني، رِواية مشرقية لكتاب «الشفا» للقاضي عياض مِنْ طريق الرَّحّالة الأندلسي أبي الحسين بن جُبير. مجلة «المناهل»، ع.19 (ص396 - 397).

وفي مصر كانت تَصِلُ ابن جُبير بعض أخبار المغرب، مِنْ ذلك مَا حَكَاهُ أبو الربيع ابن سالم، قال: «أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البِجّائي، ويُعرف بابن الخطيب، لأبي الحسين ابن جُبير، وقال: «وهو مِمَّا كتب به إليَّ من الديار المصرية في رحلته الأخيرة لَـمَّا بلغه ولايتي قضاء سبتة، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، وتُوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقّشي فدفنها بها»: [المتقارب]

بِسَبْتَةَ لِي سَكَنٌ فِي الثَّرَى ... وَخِلٌّ كَرِيمٌ إِلَيْهَا أَتَى

فَلَوْ أَسْتَطِيعُ رَكِبْتُ الهَوَا ... فَزُرْتُ بِهَا الحَيَّ وَالْمَيِّتَا»[1]

هَا نَحْنُ قد تَتَبّعنا فُصول حياة ابن جُبير مِنَ الولادة ببلنسية سنة 540هـ إلى استيطانه الإسكندرية حيث كان يُدَرِّسُ كتاب «الشِّفَا» عام 613هـ، وفي هذا التاريخ لم يكن قد بَقِيَ من عُمر هذا الفاضل إلا القليل، وخلال هذه المدة الطويلة ترك ابن جُبير قصائد شِعْرِيّة عديدة، ونصوصا نثرية كثيرة، وَصَل إلينا بعضها وضاع جُلّها. وقَبْلَ أنْ نُرافقه إلى نهاية وُجُوده الدُّنيويّ نَوَدُّ أن نتوقّف قليلا لنتحدّث عن الإنتاج الأدبيِّ لابن جُبير خِلال هذا العُمر الطويل.

11- آثار أبي الحُسين ابن جُبَيْر

أَجْمَعَ الذين ترجموا لابن جُبير على أنّه «كان أديبا بارعاً، كاتبا بليغاً، شاعراً مجيداً،... جَرَتْ بينه وبين طائفة كبيرة من أُدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته»[2]. وقد نَعَتَهُ غير واحد بالأديب الكاتب البليغ[3]، ووَصَلَ أدبه

(1) نفح الطيب (2/ 489).

(2) الذيل والتكملة (5/ 607).

(3) التكملة لوفيات النقلة (2/ 407)، تاريخ الإسلام (13/ 417).

إلى المشارقة فتُلُقِّفَ بالإعجاب، قال ابن الشَّعّار الموصليّ في ترجمة ابن جبير: «وكان شاعرا مجيدا، عالما بليغا، ذا أدب كثير، وفضل شهير، له قصائد مُسمّطة، ورسائل مدوّنة، وشعر فصيح، وترسّل مليح، وموشّحات بارعة، وكتابة رائعة»[1].

ولاشكّ أنّ هذه الأوصاف التي أطلقها على ابن جبير عدد من كُتّاب التراجم، والتي تضع شعره ونثره في طبقة راقية، هي ليست مِنْ قَبِيل المدح والمجاملة، أو المبالغة في الثناء، وإنما كان هؤلاء السّادة يَعْنُون ما يقولون، ولا ريب أنّ حُكمهم على أدب ابن جبير إنما أتى بعد اطِّلاع وتمحيص، ويتبيّن من النّماذج التي وصلتنا من شِعْره ونثره أنَّ الذين وصفوا أدبه بالجَيِّد لم يتعَدَّوْا الحقيقة في شيء، وأنّ حُكْمهم عليه كان حُكْما نَقْدِيّاً مُنصِفاً.

1 ـ شِعْرُهُ وَمُوَشَّحَاتُهُ

ذكر ابن الأبار أنّ ابن جبير: «قفل إلى الأندلس وسُمِع منه بها بعضُ ما كان عنده، وحُمِل عنه شعره في الزُّهد وغيره وهو كثير مُدَوَّنٌ»[2]، وقد صرّح غير واحد من الذين ترجموا له أنّ شعره كثير، إلاَّ أننا نجد ابن جُبير في بعض القصائد التي مدح بها صلاح الدين الأيوبي يقول بأَنَّهُ لم يجعل الشعر مطيّة للكسْب، وأنّه لم يكن يُكلّف نفسه عناء نظمه إلا في النّادر، وأنّ ما صدر عنه من شعر إنّما هو مِمّا كانت تستدعيه خطرات الهوى ـ على حَدِّ تعبيره ـ، قال: [المتقارب]

وَحُبُّـــكَ أَنْطَقَنِـــي بِـــالقَرِيضِ ... وَمَـــا أَبْتَغِـــي صِـــلَةَ الـــشَّاعِرِ
وَلَا كَـانَ فِي مــا مَــضَى مَكْـسَبِي ... وَبِئْـــسَ البِـــضَاعَةُ لِلتَّـــاجِرِ

---

(1) قلائد الجمان (6/ 125 ـ 133).
(2) التكملة (2/ 110).

إِذَا الـــشِّعْرُ صَـــارَ شِـــعَارَ الْفَتَـــى فَنَاهِيـــكَ مِـــنْ لَقَـــبٍ شَـــاهِرِ
وَإِنْ كَـــانَ نَظْمِـــي لَـــهُ نَـــادِراً فَقَـــدْ قِيـــلَ لَا حُكْـــمَ لِلنَّـــادِرِ
وَلَكِنَّهَـــا خَطَـــرَاتُ الهَـــوَى تَعِـــنُّ فَتَغْلِـــبُ لِلْخَـــاطِرِ[1]

وقد يكون هذا الذي قرّره ابن جُبير هُنا في هذه الأبيات ليس إلا مِنْ قَبيل تواضعه، أو تعبيراً عن نفسيته في تلك الحالة فقط، ومهما يكن من أمر، فابن جُبير هو ـ بلا شَكّ ـ شاعر، وشاعر مُجيد، والنّماذج التي وصلت إلينا من نظمه تدلّ على عُلُوِّ طبقته في الشِّعر، وقد بدأ يقرض الشعر وهو لا يزال طِفْلا، يذكر ابن عبد الملك المراكشي أنّ أبا عمر محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عفيون الغافقي الشّاطبي (توفي بعد سنة 584هـ) «جمع شِعْرَ ابن جُبير في صِباه»[2]، وهذا يَدُلُّ على أنّ ابن جُبير شرع في قرض الشِّعر منذ وقت مُبَكِّر من العُمْر. وعَدَا هذا المجموع الذي لا نعرف من أمره شيئا، فإن لابن جبير ديوانَ شعر رآه ابن عبد الملك واطّلع على مضامينه، قال في ترجمته: «ونظمه فائق، وقفتُ منه على مجلّد متوسط يكون قدر ديوان أبي تمام حبيب ابن أوس جمع أبي بكر الصّولي أو نحو ذلك، ومنه: جُزء سَمَّاهُ: «نَتِيجَةُ وَجْدِ الجَوَانِحِ فِي تَأْبِينِ الْقَرِينِ الصَّالِحِ»، أوْدَعَه قطعا وقصائد في مراثي زوجه أُمِّ المجد المذكورة بعد وفاتها والتوجّع لها أيام حياتها، تزيد بيوته على ثلاثمائة، سوى موشّحات خمس جعلها قريبا من آخره. ومنه جُزْءٌ سَماهُ: «نَظْمُ الجُمانُ فِي التَّشَكِّي مِنْ إِخْوَانِ الزَّمانِ»، يشتمل على أزيد من مائتي بيت في قِطَعٍ»[3].

(1) الذيل والتكملة (5/ 601).
(2) نفسه (6/ 140).
(3) الذيل والتكملة (5/ 608).

ومن شِعْرِهِ الذي نظن أنّ الجزء الأخير من ديوانه «نظم الجمان» كان يتضمّنه، قوله: [المتقارب]

أَخِلاَّءُ هَـذَا الزَّمَـانِ الخَـؤُونِ ... تَوَالَـتْ عَلَـيْهِمْ حُـرُوفُ الْعِلَـلِ
قَـضَيْتُ التَّعَجُّـبَ مِـنْ بَـابِهِمْ ... فَـصِرْتُ أُطَـالِعُ بَـابَ الْبَـدَلِ[1]

ومنه أيضا قوله: [الخفيف]

لِي صَـدِيقٌ خَـسِرْتُ فِيـهِ وِدَادِي ... حِـينَ صَـارَتْ سَلاَمَتِي مِنْـهُ رِبْحـاً
حَـسَنُ القَـوْلِ سيِّءُ الفِعْـلِ كَالْجَـ ... ـزّارِ سَـمَّى وَأَتْبَـعَ الْقَـوْلَ ذَبْحـاً[2]

وقد أَوْرَدَ ابن عبد الملك المراكشي مقطوعات من شعر ابن جبير وخَتَمَ ذلك بقوله: «وأغراضه في أشعاره مُستحسنة، ولولا خوف الإملال والخروج بها إلى غير مَا لَهُ قصدنا لاستكثرنا منها، إيثاراً لكريم آثاره، واستطابةً لإيراد أخباره وأشعاره، وفي بعض ما أوردناه دلالة على انطباعه، وشهادة بكرم طباعه»[3].

وقد وصف ابن عسكر شعرَ ابن جُبير بالفائق[4]، ثم قال: «وشعره - رحمه الله - كثير موجود بأيدي الناس»[5]. وإذا كان هذا هو حال الآثار الشعرية لابن جبير زمن الوصل بالأندلس، فإننا اليوم لا نتوفّر مِنْ شعره الكثير إلا على عدد قليل من القصائد والمقطعات والنُّتف التي تناثرت في عدد من المصادر التاريخية والأدبية، وقد تولّى جمعها بعض الدّارسين في السِّنين الأخيرة[6].

---

(1) نفح الطيب (2/ 384).
(2) نفسه (2/ 488 ـ 489).
(3) الذيل والتكملة (5/ 620 ـ 621).
(4) أعلام مالقة (ص138).
(5) نفسه (ص.149).
(6) ـ شعر ابن جبير، جمع وتحقيق: فوزي الخطبا، دار الينابيع ـ عمان.1999. =

2 ـ نَثْرُهُ وَتَرْسِيلُهُ

قال ابن عبد الملك في ترجمة ابن جبير: «جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أُدَبَاءِ عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته،... وله ترسيلٌ بديع وحِكَمٌ مُستجادة، دُوِّن ذلك كُلّه ونُقل عنه»[1]، وقد أورد ابن عبد الملك بعض النّماذج من حِكَمه ونثره، كما أورد ابن الشّعّار المَوْصليّ بعض رسائله إلى تاج الدين ابن حمويه، ومَثَّلَ ابن عسكر بنُصوصٍ مِنْ ترسيله، ولم يصلنا شيء من كتابته الديوانية، ويذكر ابن الخطيب في ترجمة ابن جبير أنّ «نثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذِكْره شهير، ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار ـ رحمه الله ـ »[2].

وتُعَدُّ رِحْلَة ابن جُبير نموذجا مِنْ نثره البديع، قال ابن عسكر: «وله كتاب جمع فيه رحلته، وعجائب مَا رَأَى وشاهد، وأتقن فيه غاية الإتقان»[3]، ويقول ابن عبد الملك عن رِحْلَتِه الأولى: «وهذه الرِّحلة هي التي صنّف وذكر مناقله فيها وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع، وهو كتاب ممتع مؤنس مثير سواكن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة»[4].

وقد أخبرتنا بعض المصادر بِأَنَّ ابن جُبير ليس هو مَنْ تولّى تدوين رحلته، قال ابن الزبير: «وحدّثني عن ابن جبير هذا شيخنا علي بن محمد الغافقي، وينسب إليه تأليف

= ـ ديوان الرحالة ابن جبير الأندلسي، جمع وتحقيق: د. منجد مصطفى بهجت، دار الرفاعي ـ الرياض، ط.أولى 1999م، في 174 صفحة.

ـ مصطفى الغديري، ديوان الرحالة ابن جبير (تحقيق: منجد مصطفى بهجت)، عرض واستدراك، مجلة: دراسات أندلسية، (تونس)، العدد 23، شوال 1420هـ/ يناير 2000م. (ص. 67 – 79).

(1) الذيل والتكملة (5/ 607 ـ 608).

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 146).

(3) أعلام مالقة (ص. 138).

(4) الذيل والتكملة (5/ 597 ـ 598).

رحلته المشهورة، وهي بأيدي الناس، وليست في تأليفه فيما ذكر لي شيخنا علي الغافقي، إنما قَيَّدَ هو حاصلَها من ذكر المراحل والانتقالات وأحوال البلاد لنفسه تقييدًا لم يقصد به التأليف، فرَتَّبَهُ بعض من أخذ عنه وأتقنه مُؤَسِّساً»[1]، ولعلّ ابن عبد الملك المراكشي كان ينقل عن ابن الزبير حين قال عن رحلة ابن جُبير: «وكان أبو الحسن الشَّارِّي يقول إنها ليست من تصنيفه، وإنما قَيَّدَ معاني ما تضمّنته، فتَوَلّى ترتيبها ونضّدها بعض الآخذين عنه بناءً على ما تلقّاه منه»[2].

وأبو الحسن علي الغافقي المعروف بالشَّارِّي، الذي أخبر تلميذه ابن الزبير بهذا الأمر، ليس مِنْ صِنف الناس الذين يُطلقون الكلام على عواهنه، أو مِمَّنْ يستقون الأخبار من مجالس اللّغو، وإنما كان هذا الرجل يَدْرِي مَا يقول، فهو أحد تلاميذ ابن جُبير النُّجباء، وعالم ثَبْتٌ، وكلامه في الكُتب ومؤلِّفيها يُعَدُّ حُجّة، فقد كان «تاريخيا، مُقيِّداً، ثِقَةً»[3]، وهو صاحب المكتبة الشهيرة بسبتة التي توفّرت على العديد مِنَ النّفائس، مِنْ ذلك تآليف ابن جُبير التي تركها بسبتة قبل أن يرحل إلى المشرق عام 601هـ.

على أنّه لا ينبغي أن يُفهم من الخبر المذكور أنّ ابن جُبير كان عاجزا عن تدوين رحلته، إِنَّنَا نعرف أَنَّهُ كان من أشهر كُتّاب عصره، وقد وُصِفَ مِنْ قِبَلِ غير واحد بالكاتب البليغ، والذي يظهر لي أنّ ارتسام ابن جُبير كاتباً بديوان والي غرناطة ـ أو لانشغالات أخرى لا نعرفها الآن ـ كان يصرفه عن الاهتمام بِأَمْرِ إخراج الرحلة في مجموع، لقد أشارت المصادر إلى أنه كتب تقييدات عن الرِّحْلَة، ومِنْ هُنا يُمكِننا أن نُقرِّر أنَّ نَصّ رحلة ابن جبير الموجود بأيدينا ليس فيه للتلميذ المذكور إلا الجمع والترتيب، وهذا الصّنيع نجد له العديد من الأشباه في نصوص الرحلات الأندلسية والمغربية مثل

---

(1) جذوة الاقتباس (1/ 280).

(2) الذيل والتكملة (5/ 597 ـ 598).

(3) نفسه (6/ 425).

رحلة ابن بطوطة الطنجي التي كتبها واختصرها ابن جُزيّ الغرناطي، ورحلة ابن الحاج النميري الغرناطي التي تولّى جمعها ولد أخيه إبراهيم.

وعملية الجمع التي قام بها ذلك التلميذ لرحلة شيخه ابن جبير لا تُنكر أهميتها، بل يجب الاعتراف بقيمتها، خاصّة إذا عرفنا أنّ ابن جبير بكتابته تلك التقاييد «لم يقصد التأليف». إذن، فلولا عمل هذا التلميذ لتشتت تلك التقاييد وضاعت، وعلى فرض وصول طرفٍ منها إلينا فإنه سيكون من الصّعب علينا التعرّف على صاحبها.

وقد وردت الرحلة في بعض النسخ المخطوطة القديمة موسومة بهذا العنوان: «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وقد يكون هذا العنوان من وضع التلميذ الذي قام بجمع تقييدات الرحلة، والله أعلم. كما وردت الرِّحلة في بعض النسخ الخَطِّية موسومة بـ: «رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» إلّا أن هذا ـ كما تبيّن ـ ليس عنوانا للرِّحْلَة، وإِنَّمَا هو عنوان تأليف آخر لابن جُبير سنتكلم عليه الآن.

انفرد ابن عبد الملك بِذِكْرِ تأليفٍ آخر لابن جُبير، فقال في ترجمته: «ولم يزل دأبه تمنّي الحجّ إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسّلام، وفي ذلك يقول:

[المتقارب]

هَنِيئاً لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الْهُدَى ... وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا

وَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ ... لِمَنْ حَلَّ طِيبَةَ أَوْ زَارَهَا

وفي مثله يقول:

[المتقارب]

إِذَا بَلَغَ الْمَرْءُ أَرْضَ الْحِجَازِ ... فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ ما أَمَّلَهْ

وَإِنْ زَارَ قَبْرَ نَبِيِّ الْهُدَى ... فَقَدْ أَكْمَلَ اللهُ ما أَمَّ لَهْ

وله في هذا المعنى كلام كثير، نظما ونثرا، وسيأتي بعض ذلك، ومنه مقالة سَمَّاهَا «**رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك**»، كتب بها إلى وَلِيِّهِ أبي الحسن ابن مَقَصِير من فاس عند عودته إلى المشرق في ذي قعدة ثلاث وتسعين وخمسمائة»[1].

وأبو الحسن بن مقصير المذكور له ترجمة قصيرة في «الذّيل والتكملة» لابن عبد الملك، هذا نصّها: «علي بن محمد بن خلف بن محمد بن مَقَصِير: بلنسي، أبو الحسن، روى عن أبي الحسن بن سعد الخير»[2].

وهذه الرِّسَالة هي ـ بِكُلِّ تأكيد ـ غير كتاب الرِّحْلَة، وكان المستشرق وليام رايت (WILLIAM WRIGHT)، أوّل مَنْ نشر النّص الكامل لرحلة ابن جُبير في عام 1852م، قد شَكَّ في أنْ تكون «رسالة اعتبار الناسك» اسْماً للرِّحْلة، بل اعتبر ذلك مِنْ وَهْمِ مَنْ يجهل الرِّحْلَة[3]، كما أنّ بعض من اعتنى برحلة ابن جُبير كالمستشرق الروسي كراتشكوفسكي نَجِدُهُ يقول إنّ عِنْوَانَها غير معروف بالضّبط، ولها «عنوانان تغلب عليهما الصّنعة هما: كتاب «رسالة اعتبار النّاسك في ذِكر الآثار الكريمة والمناسك»، و«تذكير بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، ولكن كلاهما منحول على ما يظهر، ويُمكن القول بأنّ العنوان ربما كان بكل بساطة «رحلة الكناني» نِسْبَةً إلى القبيلة التي ينتسب إليها»[4]. وقد كان أحرى بهذا المستشرق أنّ يتخلى عن «البساطة» في مِثْل هذه المسألة

---

(1) الذيل والتكملة (5/ 604).

(2) نفسه (5/ 303).

(3) The Travels of Ibn Jubayr, edited by William Wright, Leyden, E. J. Brill.1852, p.8-9

(4) اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته: إيغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.1963م، القسم الأول، (ص299 ـ 300).

العلمية التي تتطلّب تحقيقا عميقا ودقيقا، إنّ اسْمَ «رحلة الكناني» الذي يُردِّدُه كراتشكوفسكي هُنا، قال بِهِ أوّل مرّة حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون»[1]، وهو بالتأكيد ليس اسْمًا لرحلة ابن جُبير، وإِنَّمَا هو من العناوين الموضوعة.

ومن الآراء اللافتة في هذه المسألة: الرأي الذي صدر عن الرّاحل الدكتور إحسان عبّاس، لقد خصَّ ابن جبير بتأليف مُستقل درس فيه حياته وآثاره، وفي الفصل الذي تكلّم فيه على تآليف ابن جبير عَدَّ لَهُ ـ نَقْلا عن ابن عبد الملك ـ : ديوان شعر اشتمل على أجزاء سَمّاهَا، ورِحلة مُدَوّنة، ثم أشار إلى «رسالة اعتبار الناسك» إشارةَ من يجهل خبرها وأثرها، قال: «هل لابن جبير مُؤلفات غير ما تقدّم ذكره؟ إذا استثنينا الرِّحْلة وجدنا المصادر تذكر له مُؤَلَّفاً بعنوان: «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، ويعتقد كراتشكوفسكي أنّ هذا العنوان قد يصلح اسما للرحلة، ولكن المصادر العربية لا تُوَحِّد بينهما»[2].

وقد سبق أنْ أوردنا ما قاله كراتشكوفسكي حول عنوان الرِّحلة، وهو بالتأكيد مُخالف لما نسبه إليه الدكتور إحسان عبّاس الذي ـ على ما يبدو ـ استبعد الرأي القائل بأنّ عنوان «رسالة اعتبار الناسك» قد يصلح اسما للرحلة، ولم يقبل بِهِ، ولكنه ظلّ مُتمسِّكا بتلابيبه حين عاد إلى القول في حاشية الكلام المتقدِّم: «يذكر ابن عبد الملك أنّ هذا عنوان رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه بمدينة فاس، وهذا قد لا ينطبق على رحلة طويلة، وإِنَّمَا على جزء غير كبير منها»[3].

---

(1) كشف الظنون (1/ 836) ـ ط. دار الفكر. وقد وردت «الكناني» مصحّفة إلى «الكتاني» في بعض الطبعات.

(2) إحسان عباس، دراسة في الرَّحّالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية، (ص23).

(3) نفسه (ص.23 الحاشية رقم:1).

وهذا كلام لا يخلو مِنْ وَهْمٍ، فقد تأكّد لدينا بعد البحث أنّ «رسالة اعتبار النّاسك» ليست اسْمًا لرحلة ابن جُبير المشهورة، ولا هي عنوان لِجُزْءٍ منها، ولو كانت كما قيل، أو شيئا من ذلك القبيل، لما فات ابن عبد الملك المراكشي ـ وهو المؤرِّخُ النّاقِدُ المدَقِّقُ ـ أنْ يخبرنا به، ثُمَّ إِنَّ الأُستاذ إحسان عباس لم يُحْسن قراءة كلام ابن عبد الملك، فهذا لم يَقُلْ إنّ «رسالةَ اعتبار النّاسك» رسالةٌ بعث بها ابن جبير إلى أحد أصدقائه بمدينة فاس، وإِنَّمَا قال إنّ ابن جُبير كتب بها إلى وَلِيِّه أبي الحسن بن مقصير مِنْ فاس، أي أنّ ابن جُبير كتبها أيام كَوْنِهِ مُقيما بفاس في حين كان صديقه أوْ وَلِيُّهُ المذكور قد وصل إلى مكّة[1].

وهذه الرِّسَالَة تأليفٌ مُستقِلٌّ لابن جُبير لا علاقة له بالرِّحلة الأولى، وكان الدّارسون في الأدب والتاريخ يعتقدون أنها من تُراث الأندلس المفقود، ولكن كتابنا هذا سَيُبَيِّنُ لهم أنها لا تزال على قيد الوجود[2].

لقد استطعنا ـ بعد البحث والتَّقَصِّي ـ أنْ نعثر على «رسالة اعتبار النّاسك»، فهي من آثار ابن جُبير التي وصلت إلينا، غير أنَّ الذي أَوْصَلَهَا إلينا لم يَذْكُرْ اسم كاتبها وإِنَّمَا اكتفى بالقول: إنها من تأليف «بَعْض أُدَبَاء المَغْرِب»، هكذا دُون أن يُسَمِّيَ صَاحِبَها، ولعلّ نُسخة الرسالة التي وقعت بين يدي هذا الكاتب كانت عارية من اسْمِ مُؤَلِّفِهَا، ومن ثَمّ بقيت هذه الرسالة مجهولة لدى الدّارسين.

---

(1) ومن القِراءات الخاطئة لكلام ابن عبد الملك مَا ذَكَرَهُ طِيُوفِلُو كَاثِّيكَا أُورْطِيكَا في ترجمة ابن جُبير، قال عن «رسالة اعتبار النّاسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»: «إن الخبر الوحيد الذي نتوفّر عليه حول هذه الرسالة هو ما وَرَدَ عند ابن عبد الملك في «الذيل» حيث يقول إنّ ابن جُبير كتب الرِّسالة إلى حاكم فاس (Governador de Fes) أبو الحسن بن مقصير في ذي القعدة عام 593هـ/ 15 شتنبر – 13 أكتوبر 1197م».

Teofilo Galleca Ortega, IBN YUBAYR, Biblioteca de AL - Andalus, vol.6 , p.155.

(2) كُنت قد أعلنتُ عن هذا في مقال منشور بمجلة «النور» العدد : 452 (تطوان. 1428هـ/ 2007م)، ص. 35-37.

عَثَرْتُ على هذه الرسالة في الجزء الثاني من كتاب «مُحاضرة الأبرار ومُسامرة الأخيار» لابن عربي المرسي المتوفى بدمشق عام 638هـ، ومن حُسن الحظ أنّ ابن عربي أثبت عنوان الرسالة، لِأَنَّهُ بذلك فَتَحَ لنا الباب للتعرّف على هوية صاحبها الذي لا يخالجنا أدنى شكّ ـ الآن ـ في أَنَّهُ هو أبو الحسين محمد بن جُبير الرَّحّالة الأندلسي الشَّهِير.

لقد ذكر ابن عبد الملك في ترجمة ابن جُبير مقالةً لَهُ تحمل الاسم نفسه، ونصّ على أن موضوعها في تمنِّي الحجّ والشّوق إلى البقاع المقدسة، وكذلك هي الرِّسَالَة الواردة عند ابن عربي: في تمنِّي الحجّ والشّوق إلى البقاع المقدّسة، ولكن ليس هذا هو الشيء الوحيد الذي دفعنا إلى القول بأنّ رسالة ابن جبير هي ذاتها الرسالة التي احتفظ بها ابن عربي في كتابه المذكور، فالتّطابق في العنوان والاتّفاق في الموضوع مِنَ الأشياء المألوفة في التراث العربي الإسلامي، وإِنَّمَا وجدنا في ثنايا الرِّسالة التي وصلتنا دلائل عديدة تُؤَكِّد ما ذهبنا إليه، من ذلك:

1 ـ ذَكَر ابن عبد الملك المراكشي أنَّ ابن جُبير كتب «رسالة اعتبار النّاسك» إلى ابن مقصير المذكور من مدينة فاس، وبالرجوع إلى «رسالة اعتبار النّاسك» التي أَوْرَدَهَا ابن عربي في «المسامرات» وجدنا فيها ما يُفيد بشكل صريح أنّ مُؤَلِّفَها كان مُقيما بفاس يوم كتبها، قال في أوّلها: «رسمتُه إليكَ من فاس، والأشواق بعدكَ تُصَعّد الأنفاس»[1].

2 ـ مِنَ المعلوم أنّ ابن جُبير كانت «له رحلٌ ثلاث من الأندلس إلى المشرق، حَجَّ في كل واحدة منها»[2]، الأولى كانت في سنة 578هـ، وهذه هي المدوَّنة، «والرحلة الثانية كانت في سنة 585هـ» بعد أن وَصَلَهُ خَبَرُ فتح بيت المقدس[3]، «وكانت رحلته الثالثة

(1) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار (2/ 197).
(2) الذّيل والتكملة (5/ 596).
(3) نفسه (5/ 605).

مِن سَبْتَةَ بعد أيّام مِنْ وفاة زوجه الفاضلة، عاتكة المَدْعُوَّة بِأُمِّ المَجْدِ، وكانت وفاتها ـ رحمها الله ـ يوم السبت لعشر خلون من شعبان (601هـ)»[1].

وقد سبق أنْ عرفنا أن ابن جبير فرغ من كتابة «رسالة اعتبار الناسك» سنة 593هـ، أي أنّه في هذا التاريخ كان قد حَجَّ مَرَّتَيْن، وفي المرة الثانية زار القدس والخليل، وبالرُّجُوع إلى الرِّسَالة التي أثبتها ابن عربي في «المسامرات» وجدنا فيها ما يَدُلُّ على أن كاتبها سبق له أنْ زار القدس والخليل وحَجَّ مرّتيْن وبَاتَ يتطلّع إلى الحَجّة الثالثة، قال بعد أن انتهى من ذِكر مناسك الحجّ والزيارة للأقصى والخليل: «وما ذكرتُها لك على هذا النَّسَقِ إلاَّ تَبَرُّكاً بِذِكْرَاهَا وتَشَوُّفاً إلى العَوْدَةِ الثَّالِثَةِ عَسَى نُجَدِّدَ العهد الكريم بِها وأَرَاهَا»[2].

إنّ هذه الشواهد لا تدع مجالا للشك في أنَّ «رسالة اعتبار الناسك» التي احتفظ بها ابن عربي في كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» هي مِنْ وَضْعِ أبي الحسين ابن جُبير.

3ـ وثَمّة فقرات في «الرِّسَالَة» إذا مَا وضعناها إِزاء نَصِّ رحلة ابن جبير فإننا سنلاحظ تشابها كبيرا في الأسلوب بل تطابقا في العبارة، من ذلك، قول ابن جُبير ـ عندما دخل الحرم المَكِّي ـ: «فَأَلْفَيْنَا الكعبة البيت الحرام عَرُوسا مجلوة مزفوفة إلى جَنّة الرضوان»[3].

وقد جاء في «رسالة اعتبار الناسك» تشبيه الكعبة المُشرَّفة بالعروس، مما يعني أن الوصف في كِلاَ التأليفين صادر عن كاتب واحد، فهذا الكلام الذي ذُكِر في الرِّحلة في

---

(1) الذّيل والتكملة (5/ 606).
(2) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 203).
(3) رحلة ابن جبير (ص.71).

معرض الوصف هو ـ على ما نظن ـ عين الوصف الذي نجده في الرسالة، وقد تَـحَوَّل في سياق الخطاب إلى ما يلي: «حتى إذا شارفتَ مكّة الغرّاء وأن تجتلي في منصتها العروس الزهراء»[1].

والعبارات التي استعملها ابن جبير في نَصِّ الرِّحْلَة عند كلامه على الميْل الأخضر، وجبل أبي قبيس، ودار الخيزران، وغار حراء، لها شَبَـهٌ كَبِيرٌ بالعبارات التي استُعملت في الرسالة عند الحديث عن تلك المعالم والمواضع[2].

4 ـ ومِنَ الأمثلة التي أَوَدُّ أنْ أستدلَّ بها على صِحّة ما ذهبت إليه في هذه المقالة أَنِّي وجدتُ صاحب «رسالة اعتبار الناسك» يتحدّث عن مَسِير الحُجّاج إلى عرفات قائلا: «ثم أصبحوا يوم عرفة وقد جلّلت الأرض فساطيط أهل العراق وسائر الآفاق كأنها قِطع أزهار ذات ألوان صِنوان وغير صِنوان تَـخَال البسيطة منها في بُستان»[3].

وهُنا تساءلت: لماذا خصَّ أهل العراق بالذِّكر دُون غيرهم من حُجَّاجِ الأرض قاطبة المجتمعين بعرفات في ذلك العام؟ لا شكّ أن المُتكلّم هنا يتحدّث عن وقائع مُعَيَّنة لها صِلة بأهل العراق، وبالرجوع إلى ابن جبير وَجَدْتُهُ يتكلّم في رحلته على أمير الحاج العراقي الذي وصل مكّة في موسم حجّ عام 578هـ «في جمع لم يصل قطّ مثله، ووَصَلَ معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين، ومن السيدات بنات الأمراء كثير ومن سائر العجم عدد لا يحصى»[4]، ثم تَحَدَّث ابن جُبير كيف أنّ هذا الأمير سار إلى عرفات يوم جُـمعة و«ضرب أبنيته في البسيط الأفيح مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة، في استقبال القبلة، والقبلة في عرفات هي إلى

---

(1) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 197).
(2) رحلة ابن جبير (ص.88 ـ 93) ؛ محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 199).
(3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار2/ 199
(4) رحلة ابن جبير (ص.131).

مغرب الشمس، لأنّ الكعبة المقدّسة في تلك الجِهة منها، فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع لا شبيه له إلا الحشر»[1]، وقد تحدّث ابن جبير كيف غصَّ بسيط عرفات الأفيح بتلك الجموع حتى صار «بَحراً طامي العُباب، مَاؤُه السّراب، وسُفُنه الرِّكاب، وشُرُعُه الظلائل المرفوعة والقباب»، ثم قال: «فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يُحَدِّث به، ويُتحف السامع بغرابته»[2].

لقد رسخ هذا المشهد الهائل في ذهن ابن جبير، وألقى بظلاله على أحاديثه اللاحقة، فكان كُلَّمَا وَجَدَ مناسبة لاستذكاره حدَّثَ الناس به، ولما شَرَعَ ابن جُبير في كتابة «رسالة اعتبار الناسك» إلى ابن مقصير المذكور سنة 593هـ لم يكن قد تخلّص بعد من تأثير ذلك المشهد على عقله وذاكرته، ومِمَّا نودّ أن نلفت النظر إليه هو أنّ ابن جُبير عندما كان يكتب لابن مقصير عن مناسك عرفات كان يستحضر أمام عينيه منظر عرفات عام رحلته الأولى، وبالتالي لم يفطن إلى أنّ الأمور في عام 593هـ قد لا تأتي على نحو مُكرّر أو مشابه لِمَا عاينه هو في عرفات عام 579هـ[3].

---

(1) رحلة ابن جبير (ص.130).

(2) نفسه (ص.137).

(3) كان من الطبيعي أنْ لا تجيءَ الأمور مشابهة للحَجِّ السابق، وهذا ما أكّده عبد القادر الحنبلي عندما كتب عن حجّ عام 579هـ، قال: «سنة تسع وسبعين وخمسمائة: وصل أمير الحاج طاستكين في ليلة الجمعة ثامن الحجة إلى عرفات، ومعه حاج لم يصل قط مثله من أمراء العجم الخراسانية، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين ثلاث: إحداهن ابنة الأمير مسعود، والثانية أم معز الدين صاحب الموصل، زوج يانك أخي نور الدين، والثالثة ابنة الدقوسي صاحب أصبهان، من بلاد خراسان، ومن الستات بنات الأمراء، ومن سائر الأعاجم، فضربوا أبنيتهم مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرّحمة، في استقبال الليل، فأصبح يوم الجمعة في عرفات جمع لا شبيه له إلا المحشر، وزعم الكبار من أهل مكة والمجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه». (الدرر الفرائد المنظمة 1/ 360).
بينما لم يزد ـ في حجّ عام 593هـ ـ على أن قال: «سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة: حجّ بالناس شمس الدين إصكيه». (الدرر الفرائد المنظمة 1/ 363).

5 ـ كلمة الفساطيط الواردة في «الرسالة»: جمع فسطاط وتعني السرادق، وهي الخيام الملكية ذات القباب العالية، ويقابلها في اصطلاح المغاربة: أفراك أو الـمَحَلَّة(1)، وقد أطنب ابن جبير في وصف محلَّة أمير الحجّ العراقي، فقال: «وكانت محلّة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر، بَـهِيَّةَ العُدَّة، رائقة المضارب والأبنية، عجيبة القباب والأروقة، على هيآت لم يُرَ أبدع منها منظراً، فأعظمها مرآى مضرب الأمير، وذلك أنه أحدق به سرادق كالسُّور من كتان، كأنه حديقة بُستان، أو زخرفة بُنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلها سواد في بياض، مُرَقّشة مُلَوّنة كأنها أزاهير الرياض»(2).

وها نحن نرى ابن جُبير يصف مضرب الأمير بالبستان، وقبابه بالأزاهير، أَلَيْسَ هذا هو عَيْنُه وصف صاحب رسالة «اعتبار الناسك» الذي شبَّه فساطيط أهل العراق «كأنها قِطع أزهار ذات ألوان صِنوان وغير صِنوان تَـخَال البسيطة منها في بُستان».

6 ـ وابن جُبير هو القائل وقد دخل المسجد النبوي بالمدينة المنورة: [المتقارب]

وَقَفْنَا بِرَوْضَةِ دَارِ السَّلَامِ نُعِيدُ السَّلَامَ عَلَيْهِ مِرَاراً
وَلَوْلَا مَهَابَتُهُ فِي النُّفُوسِ لَثَمْنَا الثَّرَى وَالْتَزَمْنَا الجِدَارَا(3)

لا شَكَّ أن ابن جبير مُنشد هذين البيتين هو مؤلف «رسالة اعتبار النّاسك» التي احتفظ بها ابن عربي في «المسامرات»، ففيها يقول الكاتب (وهو ابن جبير مُخاطبا صديقه ابن مقصير): «فإذا دخلتَ مسجدَ الشفيع الرفيع، فاقصد بعد ركعتي التحية روضة سيد دار السّلام بالسَّلاَم، وامثل قبالة وجهه الكريم، وحَيِّـهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1) «محلّة عالية على هيئة أَفْرَاكْ». (مناهل الصفا، ص178).
(2) رحلة ابن جبير (ص131).
(3) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 149 ـ 150)، ورحلة العبدري (ص.224).

بأفضل التسليم، والْزَم هُناك أدب التّوقير والتعظيم، وقِف وإِيَّاك أن تلمس الجدار وتلثم فقد نُهِي عن ذلك ولعلّ فاعله أنْ يأثم»[1].

7 ــ ولابن جبير في الشّوق إلى مَكَّة وطيبة: [المتقارب]

هَنِيئاً لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الهُدَى ... وَحَطَّ عَنِ النَّفْسِ أَوْزَارَهَا

وَإِنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ ... لِمَنْ حَلَّ طَيْبَةَ أَوْ زَارَهَا[2]

و«حَطُّ الأَوْزَارِ» من العبارات التي كان يَحْلُو لابن جبير أن يُجَمِّلَ بها شِعْرَه ويُوظِّفَها في نَثْرِهِ، قال في «رسالة اعتبار الناسك» يصف الحُجّاج وقد وقفوا أمام الكعبة المشرّفة أوّل قدومهم عليها: «يتذكرون بذلك الموقف العظيم، موقف الحشر، فما يستطيعون صبرا، باسطو أيديهم لمولاهم الكريم الكفيل بارتقابهم، يتضرّعون إليه في فكاك رقابهم، وحَطِّ أَوْزَارِهِمْ التي حملوها باحتقابهم»[3]، ويقول في موضع آخر: «فهنالك تُقَبِّلُ مَزَارَك، وتَحُطُّ إن شاء الله أَوْزَارَكَ»[4]، وثمّة عبارات كثيرة في «الرسالة» نجدُ صورتها في بعض ما وصلنا من شِعْرِ ونَثْرِ أبي الحسين ابن جُبير.

نكتفي بهذا القدر مِنَ الشّواهد التي تدلّ على أنّ مُؤَلِّفَ «رسالة اعتبار النّاسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» التي احتفظ بها ابن عربي في كتابه «مُحاضرة الأبرار ومُسامرة الأخيار» هو أبو الحسين ابن جُبير الأندلسي الرّحّالة المشهور، وقد سَمَّاهَا ابن عربي «رسالة»، وهذا هو الظاهر منها، لأنَّ مَنْ يقرأها سيُدرك أنها مِنْ نوع المكاتيب التي

(1) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 201) - طبعة القاهرة.1282هـ.

(2) الذيل والتكملة (5/ 604).

(3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 200).

(4) نفسه (2/ 203).

تكون بين الأشخاص، فثمّة مُرسِل ومُرسَل إليه، غير أنّها ليست ككل المراسيل، فأسلوبها أدبي وموضوعها يختلف عن المواضيع المألوفة في الرسائل العادية المتبادلة بين الناس، ورُبّما سُمّيت رسالة لأنّها في حجم الرسائل الأدبيّة الصغيرة، ولذلك مَيّزها ابن عبد الملك عن الرّسائل العادية فَسَمّاهَا: مقالة، ويجوز أيضا أن نُسَمّيها «مقامة» لأنّ ابن جُبير كتبها بأسلوب السّجع المعروف في المقامات.

كان ابن عربي مُعاصراً لابن جُبير، وكَانَ مِثْلَهُ قريبا من بعض السّادة الموحّدين[1]، وقد تَتَبّعْتُ تنقُّلاته في كتابه «الفتوحات المكية» فوجدتُه قد تردّد على سبتة وفاس ومراكش[2]، وهي مُدن زارها ابن جبير وحَصَلَتْ له بها إقامة، وأغلب الظّن أنّ ابن عربي وَقَفَ على «رسالة اعتبار النّاسِك» بمدينة فاس، لأنّ ابن جُبير كتبها خلال المُدّة التي أقام بها بهذه المدينة، ويبدو أنّه وجدها عارية من اسم الكاتب، وبِمَا أنّه كان سَاكِناً بمدينة مغربية فقد اعتقد أنّ مُؤَلِّفَهَا من أهل المغرب، ثم لما أثبتها في كتابه «المحاضرات والمسامرات» قَدَّمَ لها بالعبارة التالية: «كتب بعضُ أُدَبَاء المغرب إلى بعض إخوانه بمكّة»[3].

أمّا ابن عبد الملك المراكشي الذي كان ينتقل مِنْ خزانة إلى خزانة أخرى مُلاحقا الكتب أين لاحت، فلا شكّ في أنّه وقف على الرسالة وعلى غيرها من تآليف أبي الحسين ابن جُبير بِمدينة سبتة التي كانت آخر مدينة مغربية أقام فيها ابن جُبير، ومنها انطلق إلى رحلته المشرقية التي لم يَعُد بعدها إلى بلده؛ لا شَكّ أنّ ابن عبد الملك قد وَجَدَ

---

(1) قلائد الجمان (7 / 279 ـ 280).

(2) الفتوحات المكية (1 / 55، 322، 352)، (3 / 428)، (4 / 98، 265).

(3) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار (2/ 197)، وقد أعدنا نشر الرسالة مع الإبقاء على هذه العبارة وإن كُنّا قد تَمَكّنا مِنْ معرفة مُؤَلِّفِهَا، لأنّنا لم نقف على نص آخر للرسالة عند غير ابن عربي. ومن هُنا فإنّ الواجب يقتضي الاحتفاظ بعبارته التي قدّم بها الرسالة.

ضالّته في خزانة أبي الحسن الشَّارِّي، تلميذ ابن جُبير، وأبو الحسن الشاري المذكور هو من أهل سبتة وصاحب «أوّل خزانة وُقّفت بالمغرب على أهل العلم»[1]، ولعلّ في إشارة ابن عبد الملك وابن الزبير إلى أنّ أبا الحسن الشَّارِّي كان يقول: إنّ رحلة ابن جُبير ليست من تأليفه وإنّما هي من ترتيب أحد تلامذته، ما يدلّ على أنَّه وقف على الرسالة وعلى غيرها من تآليف ابن جبير كديوانه الشعري بخزانة الشَّارِّي المذكور الذي كان مولعا بتملّك الكتب، وكان موضع مكتبته بالمدرسة التي بَنَاهَا بسبتة وهي أوّل مدرسة بالمغرب، ويُحكى أنها كانت حافلة بالنفائس ومُشتملةً على تآليف بِخُطوط أصحابها، والغالب في هذه الكُتب أنها تنفرد بزيادات وإفادات عن مُؤلِّفِيها وظروف تأليفها، مِمَّا يندر وجوده في نُسخٍ أخرى.

وقد ذكر ابن عبد الملك أنّ ابن جُبير خرج إلى المشرق بعد وفاة زوجته أُمِّ المجد بأيّام، ولا شَكَّ أنّ هذه الأيام لا يمكن أن تزيد على الشهر، ومن جُملة ما كتبه ابن جبير خلال هذه الأيام قسم من ديوان «وجد الجوانح» الذي ضمّنه مراثيه في زوجه أم المجد بعد موتها، وهذا الديوان وقف عليه ابن عبد الملك وقدّم لنا مُلَخّصا عن مضامينه، مما يدل على أنّ آثار ابن جُبير بقيت بالمغرب، وتحديداً بسبتة، وزيادة في الضبط: بخزانة أبي الحسن الشَّارِّي الذي قد يكون ابتاع من شيخه الرَّحّالة المشهور مكتبته قبل أن يخرج إلى رحلته الأخيرة.

إذن، فمن المؤكّد أن كُتب ابن جبير ـ أو بعضها ـ قد آلت إلى خزانة أبي الحسن الشَّارِّي بسبتة، ولذلك فابن عبد الملك المراكشي ـ الذي نَهَلَ مِنْ هذه الخزانة ـ أَمَدَّنَا بِاسْم مُؤَلِّف «رسالة اعتبار الناسك»، واسم المرسَل إليه، وتاريخ الرسالة، ومكان صدورها، وهذه الأشياء لم يكن لابن عبد الملك أن يَجدها إلا في خزانة الشَّارِّي الذي

---

(1) اختصار الأخبار (ص29).

«كان قد تَحَصَّل عنده من الأعلاق النّفيسة وأمهات الدَّوَاوِين العلمية ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره، ولا تَحَصَّل عند كثير مِمَّن تقدّمه، وبنى مدرسة ببلده سبتة ووَقّف عليها من الكُتب ما تحتاج إليه»[1]، وفضلا عن ذلك «كان جَيِّد التقييد، حسن التعريف بالأشياخ والمصنفين، يُقَيِّدُ فوائد على ظهور الكتب مِمَّا تختصّ بمُؤَلِّفِيها وغير ذلك»[2]، وأُقَدِّرُ أنَّ تلك الفوائد المتعلقة بـ«رسالة اعتبار الناسك» التي أَتَى بها ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة ابن جبير إنما وَجَدَهَا بِخَطِّ تلميذه أبي الحسن الشَّارِّي.

وقد سبق أنْ ذكرت أنّ ابن عربي تردّد في المغرب على المدن التي زارها ابن جُبير كسبتة وفاس ومراكش، وقدّرت أنّه وقف على رسالة «اعتبار النّاسك» بمدينة فاس، ومن الجدير بالذكر أنّ ابن عربي لقي ابن جبير بمراكش وتكلّم معه، ذكر في «الفتوحات المكية» أنّه لقي فيلسوف قرطبة أبا الوليد ابن رُشد في المرّة الأولى وتحدَّث معه، ثم أراد الاجتماع به مرّة ثانية فلم يَتِمَّ له ذلك إلى يوم مات، قال: «فما اجتمعتُ به حتى درج، وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش، ونُقل إلى قرطبة وبها قبره، ولما جُعل في التابوت الذي فيه جسده على الدّابة جُعلت تواليفه تُعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جُبير كاتب السيد أبي سعيد، وصاحبي أبو الحكم عمرو بن السَّرّاج النّاسخ، فالتفتَ أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يُعادل الإمام ابن رشد في مركوبه، هذا الإمام وهذه أعماله يعني تواليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت لا فضّ فوك، فقيّدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم، وما بقي من تلك الجماعة غيري، وقُلنا في ذلك:

هَـذَا الإِمـامُ وَهَـذِهِ أَعْمالُـهُ ... يَـا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَتْ آمالُهُ»[3].

---

(1) الذيل والتكملة (8/ 557).

(2) إفادة النصيح (ص109).

(3) الفتوحات المكية (1/ 235).

ومِمَّا ينبغي إدراجه ضمن هذا الفصل أنّ مُترجمي ابن جُبير يُحَلُّونَه بتحْليات علمية مثل «الفقيه الأديب»، و«الفقيه المُحَدِّث»، مِمّا يعني أنّ ثمّة، في ضُرُوب المعرفة التي أقبل عليها ابن جُبير وتعلّمها، فُنُوناً وعُلُوماً أخرى غير ما ذَكَرْنَا، نشط فيها، وكان له فيها باعٌ وصولة، لاسيما الفقه والحديث، فقد نقل المقري أنّ ابن الخطيب قال في حق ابن جُبير: «إنه من عُلماء الأندلس بالفِقْه والحديث والمشاركة في الآداب»[1].

أمّا مُشاركته في الآداب فقد عرفناها، ويبقى أنْ نعرف حظّه في الفنّين البَاقِيَيْن، فقد نَعَتَهُ العبدري بـ «الشيخ الإمام المُحَدِّث»[2]، وعَدَّهُ الحافظ المنذري مِنْ نَقَلَةِ الحديث الشّريف وترجم له في كتابه الذي أَفْرَدَه للمشتغلين بالصّنعة الشريفة[3]، ويتبيّن إسهامه في هذا الميدان من خلال رِوَايَتِهِ كتاب «الشِّفَا» للقاضي عياض، ويبدو أنّه اكتسب ثقافة حديثية صالحة بقيت ملامحها في بعض تآليفه مثل «رسالة اعتبار النّاسك» التي ضمّنها عددا من الأحاديث النبوية الشريفة، كما يتّضح من الرسالة ذاتها، ومن نَصِّ الرحلة، أنّ له اطِّلاعا على كُتب السِّيَر والمغازي.

☑أبو الحسين ابن جبير الفَاضِلُ الزّاهد

ومِمَّا ينبغي أنْ يُفردَ بِفَصْلٍ في هذا الكتاب الخاص بسيرة ابن جُبير، الكلام على فَضَائِلِهِ وزُهْدِه، فقد تضافرت معلومات كثيرة في كُتب التّاريخ والأدب على التّنويه ببعض الصِّفات المميِّزَة لشخصية ابن جُبير، ونَعْنِي صفتيْ «الفضل» و«الزُّهْد».

---

(1) نفح الطيب (2/ 383).

(2) رحلة العبدري (ص217).

(3) التكملة لوفيات النَّقَلة (2/ 407).

1 ـ فَضَائِلُ أَبِي الحُسَيْنِ ابْنِ جُبَيْر

كُلُّ الذين عرفوه في الأندلس والمغرب أو في بلاد المشرق نعتوه بـ«الفاضل»، أو «الشيخ الأجلّ الصالح الفاضل»[1]، ووُصِفَ أيضا بـ«الشيخ الفقيه الأديب الفاضل الزّاهد»[2]، وقيل فيه إنه «كان من أهل العلم والديانة والفضل والصيانة»[3]. وقال فيه آخر: «إمام صالح جليل»[4]، وقد خصّص المقري في «نفح الطيب» صفحات للكلام على مُرُوءَةِ أهل الأندلس، فَسَاقَ ابنَ جُبير مثالا على ذلك، وقال فيه:

«كان من أهل المروءات، عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان، والمبادرة لإيناس الغرباء»[5]، ثم نقل عن صاحب «الملتمس» قوله: «كنتُ أحرص الناس على أن أُصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الفرس، فجعلتُه ـ يعني ابن جبير ـ الواسطة حتى تيسّر ذلك، فلم يوفِّق الله ما بيني وبين الزّوجة، فجئته وشكوت له ذلك، فقال: أنا ما كان القصد لي في اجتماعكما، ولكن سعيت جهدي في غرضك، وها أنا أسعى أيضا في افتراقكما، إذ هو من غرضك، وخرج في الحين ففصل القضية، ولم أرَ في وجهه، أوّلا ولَا آخِرًا، عنوانًا لامتنان ولا تصعيب، ثم إنه طرق بابي، ففتحت له، ودخل وفي يده محفظة فيها مائة دينار مُؤمنية، ثم قال: يا ابن أخي، اعْلم أني كنت السّبب في هذه القضية، ولم أشكَّ أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذي وجدته الآن عند عمّك، فبالله إلا ما سَرَرْتَنِي بقبوله، فقلتُ له: أنا ما أستحيي منك في هذا الأمر، والله إن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفتُ فيه مال والدي من أمور

---

(1) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه (ص.183).

(2) مُستفاد الرحلة والاغتراب (ص.243، 334).

(3) التكملة لوفيات النقلة (2/ 407).

(4) تاريخ الإسلام (13/ 417).

(5) نفح الطيب (3/ 295).

الشباب، ولا يحل لك أن تُمَكِّنني منه بعد أن شرحت لك أمري، فتبسّم وقال: لقد احتلْتَ في الخروج عن المنّة بحيلة، وانصرف بماله»[1].

وفي المشرق نجد ابن جُبير يتدخّل كتابةً لدى عدد من أصحابه ذوي الجاه والنفوذ لتقديم العون والمساعدة لبعض المغاربة والأندلسيين المقيمين في الغُربة[2].

وهذا الشّاعر الوشّاح أبو عبد الله ابن الحاج، المعروف بمدغلّيس، أحد الذين ارْتَوَوْا من فضل ابن جُبير، يقول في مدحه: [الكامل]

لِأَبِي الحُسَيْنِ مَكَارِمٌ لَوْ أَنَّهَا ... عُدَّتْ لَمَا فَرَغَتْ لِيَوْمِ الْمَحْشَرِ
وَلَهُ عَلَيَّ فَضَائِلٌ قَدْ قَصّرتْ ... عَنْ بَعْضِ نُعْمَاهَا عِظَامُ الأَبْحُرِ[3]

2 ـ ابنُ جُبَيْرِ الزَّاهِد

جمع ابن جبير إلى العلم والأدب: الزُّهْد، ولذلك قيل فيه: «الشيخ الفقيه الأديب الكاتب البارع الزاهد الورع»[4]، ونَعَتَهُ ابن الأبّار في «الحُلّة السِّيَراء» بأبي الحسين الزاهد[5]، وهو في رحلة العبدري موصوف بـ«الفقيه الزاهد، المنقطع إلى الله بمُهجته»[6]، ووَصَفَهُ القاسم بن يوسف التجيبي السّبتي بـ«الأديب الفاضل الزاهد»[7]، وقال ابن الأبّار في ترجمته: «وعني بالآداب فبلغ منها الغاية وتقدّم في

(1) نفح الطيب (3/ 295 ـ 296).
(2) قلائد الجُمان (6/ 125 ـ 133).
(3) نفح الطيب (2/ 486).
(4) جاء هذا في تحليته في النسخة المخطوطة من كتاب «الشفا» التي كانت في ملك أبي الفتح ابن سيد الناس القاهري الأندلسي. انظر مقالة الشيخ محمد المنوني في: مجلة المناهل، العدد. 19.
(5) الحلة السيراء (2/ 224).
(6) رحلة العبدري (ص. 172).
(7) مُستفاد الرحلة والاغتراب (ص. 243).

صياغة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها»[1]. ولعَلَّ ابن جُبير تعرّف على المذهب الصوفي القائم على الزُّهْد مُنذ فترة مُبَكِّرَة من حياته، وأنّه استقى المشرب الزُّهْدِي مِن طريق صُحْبَتِهِ لأشهر صُوفِيٍّ في وقته وهو أبو عمران موسى الميرتلي (ت.604هـ)، ذَكَرَ المقّري في «نفح الطيب» أنَّ صاحب كتاب «الملتمس» قال في ترجمة أبي الحسين ابن جُبير: «وتذاكرنا يوما معه حالة الزّاهد أبي عمران المارتلي، فقال: صَحِبْتُه مُدّة فما رأيتُ مِثْلَهُ، وأنشدني شعرين ما نسيتهما ولا أنساهما ما استطعت، فالأوّل قوله: [المتقارب]

إِلَى كَمْ أَقُولُ فَلاَ أَفْعَلُ ... وَكَمْ ذَا أَحُومُ وَلاَ أَنْزِلُ

وَأَزْجُرُ عَيْنِي فَلاَ تَرْعَوِي ... وَأَنْصَحُ نَفْسِي فَلاَ تَقْبَلُ

وَكَمْ ذَا تُعَلِّلُ لِي وَيْحَهَا ... بِعَلَّ وَسَوْفَ وَكَمْ تَمْطُلُ

وَكَمْ ذَا أُؤَمِّلُ طُولَ البَقَا ... وَأَغْفُلُ وَالْمَوْتُ لَا يَغْفُلُ

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يُنَادِي بِنَا ... مُنَادِي الرَّحِيلِ أَلَا فَارْحَلُوا

أَمِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ أَرْجُو الْبَقَا ... وَسَبْعٌ[2] أَتَتْ بَعْدَهَا تَعْجَلُ

كَأَنَّ بِي وَشِيكاً إِلَى مَصْرَعِي ... يُسَاقُ بِنَعْشِي وَلَا أُمْهَلُ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ السُّؤَالِ ... وَطُولِ الْمُقَامِ لَما أُنْقَلُ

(1) التكملة (2/ 110).

(2) توفي أبو عمران الميرتُلي عام 604هـ، وله من العمر 82 سنة (التكملة 2 / 181)، ويُستفاد من هذا البيت الشعري أنّ الميرتلي كان له من العمر 77 سنة حين لقيه ابن جُبير. ومن هُنا يُعْلَم أنّ اللّقاء بينهما تمّ في سنة 598هـ أو 599هـ.

والثّاني قولـه:

إسْـــمَعْ أُخَـــيَّ نَـــصِيحَتِي وَالنُّـصْحُ مِـنْ مَـحْضِ الدِّيَانَـهْ

لَا تَقْـــرَبَنَّ إِلَى الـــشَّهَا دَةِ وَالْوَسَـــاطَةِ وَالأَمَـــانَهْ

تَـــسْلَمُ مِـــنْ أَنْ تُعْـــزَى لِـــزُو رٍ أَوْ فُـــضُولٍ أَوْ خِيَانَـــهْ[1]

قال ابن جبير: ولما فَارَقْتُهُ (يعني الميرتُلي) أنشدته هذه الأبيات: [الوافر]

أَبَـا عِمْـرَانَ قَـدْ خَلَّفْـتُ قَلْبِـي لَـدَيْكَ وَأَنْـتَ أَهْـلٌ لِلْوَدِيعَـهْ

صَـحِبْتُ بِـكَ الزَّمـانَ أَخَـا وَفَـاءٍ فَهَـا هُـوَ قَـدْ تَنَمَّـرَ لِلْقَطِيعَـهْ[2]

وأبو عِمران موسى بن عمران الميرتلي المذكور، صُوفِيٌّ أندلسيٌّ مشهور، سَكَنَ إشبيلية، «وكان مُنقطع القرين في الورع والزّهادة والعبادة والانقباض والعُزلة، مُشارا إليه بإجابة الدعوة، لا يعدل به أحد من فُضلاء وقته وصلحائهم تبتّلا وانقطاعا وإعراضا عن الدنيا وإقبالا على الأخرى، له في ذلك أخبار محفوظة وآثار مشهورة مع المشاركة في التّفسير وحفظ الحديث وأصول الدِّين إلى الحظ الوافر من الأدب والتّقدم في قرض الشِّعر والأخذ بطرفي النظم والنثر، ونوّر الله بصيرته فقصر كلامه على الزُّهد، وصرفه بين التذكير والتحذير، لم يتجاوز به ما كان عليه، فجعله كله وصايا وحِكَماً تُوقِظُ الغافل وتعظ العاقل، قد كُتب ودُوِّن وهو بأيدي الناس»[3].

---

(1) نفح الطيب (3/ 296 ـ 297).
(2) نفسه (2/ 487 ـ 488).
(3) التكملة (2/ 179).

وقد ذكر ابن الخطيب أنّ ابن جُبير بعد عودته من الرِّحْلة الثانية شرع في تقديم دُرُوس في التصوف[1]. والظاهر أنّه كان مجبرا على أنْ لا ينحو منحى الصوفية في حياته العَامّة، مِنْ عُزْلَةٍ وتَقَشُّفٍ وما إلى ذلك، لِأَنَّهُ كان كاتبا لدى أحد السّادة الأمراء الموحدين، وقد دخل في خدمته في مرحلة الشباب، ومن المعروف أنّ الإنسان يُقبل بكُلِّيّته على الدنيا في هذه المرحلة من الحياة، ولكن مِنْ طبيعة ابن جبير أنّه كان زاهداً في الدنيا حتى وهو موظّف لدى الدّولة، فَلَمْ يُعرف عنه أنّه انهمك في الملذّات وجمع المال وامتلاك العقار، بل ما عرفناه عنه هو أنّ قِسْماً كبيرا من كسبه كان يصرفه في قضاء حوائج الناس؛ لقد نشأتْ معه خِصلة الزهد، وظلّت حاضرة في نفسه بل تقوّت مع مُرور الأيام، ورُبَّمَا أجبرته الظروف على أن يقطع صلته بأهل الدنيا، وذلك حين رأى في سلوك بعض الأمراء من الزّلات والهنَات، وفي خدمتهم مِنْ مهانة وميل النفس إلى حُبّ الدنيا، ثم في مرحلة حاسمة من حياته قرّر ابن جُبير أنْ يعتزل خِدمة الأمراء، وقد كانت واقعة الشّراب التي جرت له مع مخدومه والي غرناطة بداية القطيعة مع الوظائف، فبدأ رحلاته إلى الحجّ، وقد كان لهذه الرّحلات أثر كبير في تزهّده وعُزوفه عن الدنيا، قال ابن القاضي بعد أن ذكر رحلاته: «وهو (يعني ابن جبير) في ذلك يزداد فضلا وورعا وعِلْماً يُقرّبه إلى الله تعالى، فزاد تواضعه وخَيْرُه»[2]، وقد عَبّرَ ابن عبد الملك عن هذه الحالة بكلام آخر فقال، وذلك في معرض الحديث عن رحلاته أيضا: «وفضله مع ذلك يزيد، ووَرَعُهُ يتحقّق، وأعماله الصالحة تزكو»[3]. ثم فُجع ابن جُبير بموت وَلَدِهِ الوحيد، وبعده رُزِئَ بوفاة زوجه قرينه الصالح، وقد كانت هذه من الحوادث التي دفعت به إلى قطع علائقه بالدنيا الفانية والإقبال على الآخرة، وقد نقل ابن عسكر مِنْ «خَطٍّ بعض الشيوخ أنّ أبا الحسين هذا، كان أوّلا من العُمال المشتغلين بأشغال

---

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة (2/ 147).

(2) جذوة الاقتباس (1/ 278).

(3) الذيل والتكملة (5/ 606).

السلطان، واكتسب مالا كثيرا، ثم نزع عن ذلك كُلِّهِ، وتَصدَّقَ بجميع ماله، وزهد في الدنيا، ولم يزل على ذلك حتى لقي الله تعالى»[1].

☑ وَفَــاتُـهُ

كان ابن جبير كثيرَ الشَّوْقِ إلى مكّة وطيبة شرّفهما الله ﷻ، ويبدو من بعض شعره، ومِنْ «رسالة اعتبار النّاسك»، ومِنْ نَصِّ رحلته، أنّه كان يتمنّى أن يقضيَ الله ﷻ أجله بإحدى المدينتين المقدستين، فقد أوصى صاحبه ابن مقصير بما كان يختلج في نفسه هو، فكَتب إليه يقول: «وَما ذَكَرْتُهَا لَكَ عَلَى هَذَا النَّسَقِ إِلاَّ تَبَرُّكاً بِذِكْرَاهَا، وَتَشَوُّقاً لِلْعَوْدَةِ الثَّالِثَةِ عَسَى نُجَدِّدُ الْعَهْدَ الْكَرِيمَ بِهَا وَأَرَاهَا، وَاسْتِطَابَةً لِلْحَدِيثِ مَعَكَ فِيهَا لأَنَّكَ تَعْرِفُ بِالْمُعَايَنَةِ مَعْنَاهَا، وَلَيْسَ مَنْ دَرَى حَقِيقَةَ الشَّيْءِ كَمَنْ لاَ يَدْرِيه، وَأَيْنَ شَوْقُ آدَمَ لِلْجَنَّةِ مِنْ شَوْقِ بَنِيه، فَعُدْ إِلَى حَرَمِ اللهِ الْعَظِيمِ، وَأَلْقِ فِيهِ عَصَا تَسْيَارِك، وَقِرْ عَيْناً بِمَآلِ اخْتِيَارِك، وَأَقِمْ بَقِيَّةَ عُمْرِكَ فِيهِ مُسْتَوْطِناً»[2].

هذا ما كان ابن جُبير يتمنّاه لصديقه، ولنفسه كذلك، ولكن لا تدري نفس بأي أرض تموت، فقد تُوفي ابن جُبير «يوم الأربعاء السّابع والعشرين من شعبان سنة 614هـ بثغر الإسكندرية، ودُفن على كوم عمرو بن العاص»[3]. رَحِمَ الله أبا الحُسين ابن جُبير، وبَوَّأَهُ الرَّحْمنُ المنزِلَ الرَّحْب في الفردوس الأعلى مع النَّبِيِّين والصِّدّيقِين.

---

(1) أعلام مالقة (ص.138).

(2) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار(2/ 203).

(3) التكملة (2/ 110)، والذيل والتكملة (5/ 621)، والتكملة لوفيات النقلة (2/ 407)، وتاريخ الاسلام (13/ 417_418)، والمقفى الكبير(5/ 87-88).

☑ النُّسخ المخطوطة المعتمَدة في تحقيق «رسالة اعتبار الناسك».

اعتمدنا في تحقيق «رسالة اعتبار النّاسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» لابن جُبير على أربع نسخ مخطوطة، ومما تنبغي الإشارة إليه أنَّ الرِّسَالة وردت في الجزء الثاني من كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» لابن عربي المرسي، والجزء المذكور هو الموسوم بالمسامرات.

1 ـ النسخة الأولى: مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم: 4518 . توجد الرسالة في هذه النسخة من الورقة 162.أ إلى 168.أ، وقد رمزنا لها بحرف (ق).

2 ـ النسخة الثانية: مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم 62 . تحتل الرسالة في هذه النسخة الورقات 301.أ إلى 305.أ، وقد رمزنا لها بحرف (ك).

3 ـ النسخة الثالثة: مخطوطة مكتبة جامعة الإمام سعود بالرياض، رقم 5559. تقع الرسالة في هذه النسخة من الورقة 62.أ إلى الورقة 64.ب، وقد رمزنا لها بحرف (س).

4 ـ النسخة الرابعة: مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، مُسجَّل تحت رقم: 1757، جاء في آخر الأصل المنتسخ منه: «انتهى السّمر، والحمد لله وحده. وقد علق هذا الكتاب الشريف العبد الفقير إلى الله تعالى السيد عبد القادر بن المرحوم السيد محمد بن السيد خالد الحسيني عامله الله بلطفه الخفي آمين، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء تاسع شهر محرم الحرام المعظم قدره وحرمته سنة واحد وتسعين وألف (1091هـ) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، آمين».

وبعد هذا كتب النّاسخ ما يلي: «انتهى كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» بحمد الله وحُسن عونه وتأييده وبِمَنِّه، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده، مِنْ خَطٍّ كَثِيرِ التَّحْرِيفِ، وذلك في 25 حجة الحرام متم عام 1286هـ».

تحتل الرسالة في هذه النسخة من الورقة 122.ب إلى 127.أ من الجزء الثاني. وقد رمزنا لها بحرف (م).

وفضلا عن هذه النسخ الخطية من الكتاب، تمكّنت من الاطلاع على جميع طبعات كتاب: «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»، وقابلت نصّ الرسالة على نصوصها الموجودة بهذه الطبعات، وأحببت الاستئناس في تحقيقي للرسالة بالطبعة الحجرية الأولى[1]، وهي أضبط النسخ المطبوعة التي توفّرتُ عليها، جاء في آخرها ما يلي:

«انتهى بحمد الله وعونه كتاب «المسامرات» للعالم العامل، القطب الواصل، العارف الغارف من بحر المعارف، سيدي محيي الدين بن العربيّ الحاتمي الطائي نفعنا الله به وبعلومه آمين. تَمَّ طبع هذا الكتاب المستطاب بالقاهرة المعزية، على ذمة ذي الأخلاق المرضية حضرة السيد محمد الصبّاغ، كان الله له في الدّارين آمين، بمطبعة السيد محمد شعراوي رضوان، عامله الله بالإحسان، وذلك ختام ربيع الثاني سنة(1282). وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم».

تحتل الرسالة في هذه الطبعة من الصفحة 197 إلى الصفحة 203 من الجزء الثاني. وقد رمزنا لها بحرف (ح).

---

(1) اطّلعتُ على الجزء الأوّل من كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» لابن عربي، المطبوع بالمطبعة العُثمانية في القاهرة سنة 1305هـ، وقد كُتب بأول صفحة من هذه النشرة أنها الطبعة الأولى، وهذا غير صحيح، فقد سبقتها طبعة السيد محمد شعراوي (القاهرة.1282هـ).



نماذج مُصوّرة من النُّسخ المخطوطة المعتمَدة في تحقيق رسالة ابن جُبير المسمّاة: «رسالة اعتبار النّاسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»:

اين الحسان ذوي النضارة والبهى اين المليح من القبيح الاسود
اين الذين تجبروا وتعظموا وعتوا عتوا لم يكن بالمرشد
فاجابه من قبر مجيب ينشد شعر
ان المنية عاجلتهم بغتة فهم خمود جوف قبر ملحد
قد دب الديدان في اجسامهم وسعى هوام الارض في الوجه الند
كم من وجوه قد تناثر لحمها ومفاصل بانت وبان من اليد
بات بعض الصالحين المنقطعين من اهل الخلوات في المغار
ليلة فبينما هو يفكر في شانه اذ هتف بها هاتف ينشد شعر
وقف بالقصور على دخلة حزينا وقل اين اربابها
واين الملوك ولاة العهود رقاة المنابر غلابها
تجيب اثارهم عنهم اليك فقد ماتوا جميعا بها
الدخلة بالضم باطن الامر يقال هو عالم بدخلته اي باطن
امره رسالة اعتبار الناسك في ذكر الاثار الكريمة
والمناسك كتب بعض ادباء المغرب الى بعض اخوانه
بمكة اخي الاعز الاكرم الافضل الابر الاوفى الاوصل الذي
استوحش لفراقه وادوب اسى وكمدا ان لم اجتمع به في تلك
المشاهد الكريمة والان قد بلغت ما سالني واحلت عن قريب

أول صفحة من الرسالة ـ نسخة (ق)

من شوق بيته فعد لحرم الله العظيم والوقوف في عرصى
ديارك وفرغنا بمثال الخيارك واتمم بقية عمرك فيه
مستوطنا وللنية الصادقة الخالصة لله عز وجل مستبطنا
وقل رب تركت من اخواني عبيدا امسينا فين للعود للحرم لك
متوسلين اليك في ذلك بفضلك وكرمك فسهل بعزتك
وقدرتك وعرفهم معاهدهم الكريمة بعرفات والمشعر
الحرام وشرفهم بالمثول فيها قبل ان تقضى على مدتهم
بالانصرام وتنقضي اعمارهم مواقع الاحترام انك سبحانك
مولي المنن الجسام ومقدر الحظوظ السنية لعباده
والاقسام واقرا عليك ايها الاخ الاسنى المحتوم لمن سماه
بالحسنى سلاما اعطر من الزهر عند الابتسام يتلماه مسك
والريح بالتنشق والابتسام ورحمة الله وبركاته وتحية
مبرورة روينا من حديثنا الحاسمي فيما يرويه من حديث
ابي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لرجل
يوصيه اقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر واقلل من
الذنوب يسهل عليك الموت وقدم مالك امامك يسرك
اللحاق به واقنع بما اوتيته يخف عليك الحساب ولا تشاغل

آخر صفحة من الرسالة ـ نسخة (ق)

ان المنية عافصتهم بغتة فهم خمود بجوف قبور ملحد
تبذيت الديدان في اجسادهم وسعت هوام الارض في اللحد — الذي
لم من وجوه قد تناثر لحمها ومفاصل بانت وبان عن اليد
المقتطفين من اهل الخلوات
في المقابر ليلة فبينا هو يتفكر في شانها اذ هتف بها هاتف

وقفت بالقصور على دخلة حزنا وقلت اين اربابها
واين الملوك ولاة العهود رقاة المنابر غلابها
تجيبك اثارهم عنهم اليك فقد مات اصحابها
بالضم باطن الاثر يقال هو عالم بدخلته اي
باطن امره والحمد لله حق حمده
كتب بها بعض ادبا
المغرب الى بعض اخوانه بمكة يا اخي الاعز الاكرم الافضل
الاثر الاوفى الاوصل الذي استوحش لفراقه وادوب
اسا وكمدا ان لم اجتمع به في تلك المشاهد الكريمة والا
قد بلغك الله المنى واحلك عن قريب بعرفات ومنى
بعثته اليك من فاس والاشواق بعدك تتصعد
الانفاس فالى الله اشكو اينك واليه سبحانه اتوسل
ولله اسال ان يجمع بكرمه الكريم الخفي كما جمع بيني
وبينك ودعت فاودعت
الجوانح من تباريح الشوق ما اودعت وقفلت الافئدة
حسب مقصدك المبارك الحركة وصنعت فيسر الله
الى تلك المثابة الاسعد عودة ووصولك وبلغها
من لقائك غاية سؤلك وبي في ذلك الحرم الشريف
المنيف لغبة حصولك واحرى فلذلك بين السلام
حتى تنهى انشا الله عن كل ولي بين اوليائك الى تلك
المشاهد المعظمة والمعاهد المكرمة تحية العا — طر

أول صفحة من الرسالة ـ نسخة (ك)

لحظوظ النسبة لعباده والأقسام وأقرأ عليك أيها الأخ
الإنسي المختوم له إن شاء الله بالحسنى سلام أعطر من الزهر
عند الابتسام وتلقاك دائرين بالتشوق والاغتنام ورحمة
الله وبركاته الهاشمي فيما
يرويه من حديث أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه لرجل يوصيه أقلل من الشهوات يسهل
عليك الفقر وأقلل من الذنوب يسهل عليك الموت
وقدم مالك أمامك يسرك اللحاق به واقنع بما أوتيته
يخفف عليك الحساب ولا تتشاغل عما فرض عليك
بما ضمن لك أنه ليس بفائتك ما قسم لك ولست بلاحق
ما زوي فلا تكن جاهدا فيما يصبح نافدا واسع لملك
لا زوال له في منزل لا انتقال له
ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث
شغل لا ينفك عناه وفقر لا يدرك غناه وأمل لا ينال
منتهاه إن الدنيا طالبة ومطلوبة وطالب الآخرة
تطلبه الدنيا حتى يستكمل رزقه وطالب الدنيا تطلبه
الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه ألا وإن السعيد
من اختار باقية يدوم نعيمها على فانية لا ينفد
عذابها وقدم لما تقدم عليه مما هو الآن في يديه
قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه وقد شقي هو بجمعه
واحتكاره من حديث محمد بن حماد
كنا يوما عند إسحق بن نجيح وعنده جارية يقال لها
شادن موصوفة بجودة ضرب العود وحسن
صوت وحسن خلق وظرف مجلس وحلاوة
وجه فأخذت العود وغنت
طبي تكامل في نهاية حسنه فزها بحسنه وتاه بصده

آخر صفحة من الرسالة ـ نسخة (ك)

أول صفحة من الرسالة ـ نسخة (س)

آخر صفحة من الرسالة ـ نسخة (س)

رسالة اعتبار المناسك وتذكر الآثار الكريمة

كتب بها بعض ادباء المغرب الى بعض اخوانه بمكة

يا اخي الاعز الاكرم الافضل الانزه الاوحد وصل الله انسك وانشرح

لعهدك انسي واذهب انسي وكثر الا ان لم اجتمع بك في تلك المشاعر الكريمة

ولما قد بلغنا الله امنا واحلنا عرفات [illegible] بعرفات زمن [illegible]

البلد [illegible] [illegible] الى الله اشكوا [illegible]

سبحانه اتوسل وله اسال ان يجمع بكم الكريم اخي كما جمع اوكا

بيني وبينك بالعرفان [illegible] واودعت الجرانه من تباريح

الشوق ما اودعت وبعثت الا [illegible] بحسب مقصد المبارك الجليل

وصرعت [illegible] الله الى تلك المشاهد [illegible] وصلت [illegible]

من لقائك غاية سولك [illegible] الحرم الشريف [illegible]

امرك لاجر [illegible] انسلامتك [illegible] ان شاء الله [illegible]

مراو [illegible] الى تلك المشاعر المعظمة والمعاهد [illegible]

عامة وسلامة [illegible] تقبيل الحجر [illegible]

والسلام [illegible] الله تعالى [illegible]

المشاعر [illegible] الناس [illegible]

الحج [illegible] الشوق [illegible]

[illegible] الله تعالى [illegible]

[illegible] الجلال حتى [illegible] مكة

أول صفحة من الرسالة ـ نسخة (م)

آخر صفحة من الرسالة ـ نسخة (م)

تجيبك آثارهم عنهم * اليك فقد مات اصحابها
الدخلة بالضم باطن الامر يقال هو عالم بدخلته اي بباطن امره انتهى

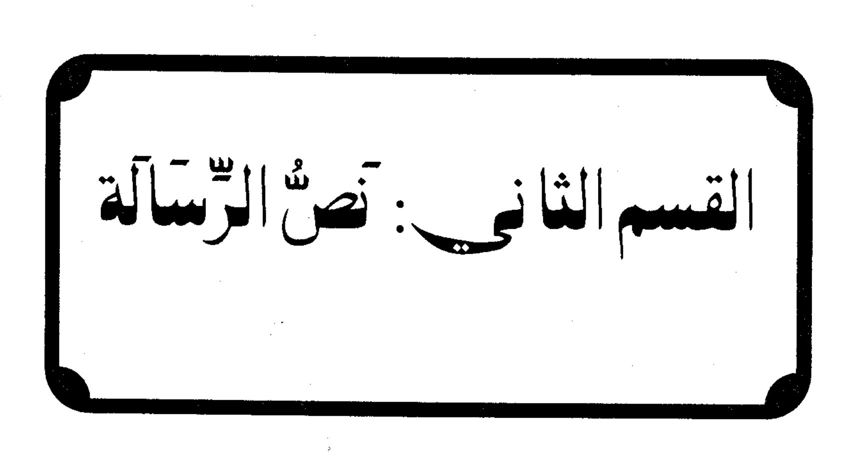
* (رسالة اعتبار الناسك * في ذكر الآثار الكريمة والمناسك) *

كتب بعض ادباء المغرب الى بعض اخوانه بمكة اخي الاعز الاكرم
الافضل * الابر الاوفى الاوصل * الذي استوحش لفراقه واذوب اسى
وكمدا ان لم اجتمع به في تلك المشاهد الكريمة والا قد بلغك الله
المنى * واحلك عن قريب بعرفات ومنى * رسمته اليك من فاس والاشواق
بعدك تصعد الانفاس * فالى الله الكريم اشكو بينك * واليه سبحانه
اتوسل وله اسال ان يجمع بحرمه الكريم آخرا كما جمع اولا بيني وبينك
فلقد فارقت وودعت * واودعت الجوانح من تباريح الشوق ما اودعت
وفطرت الافئدة بحسب مقصدك المبارك الحرس * وصعدت
فيسر الله الى تلك المثابة الامنية عودة وصولك * وبلغك من
لقائها غاية سولك * وسنى في ذلك الحرم الشريف المنيف بغية خطوك *
واجرى فلكك بريح السلامة حين ينتهي ان شاء الله عن كل ولي من
اولئك الى تلك المشاهد المعظمة * والمعاهد المكرمة * تحية العاطر
وسلام * وتذكرة عند مباشرتك تقبيل الحجر الاسود واستلامه *
بحول الله عز وجل فاذا بدأت على بركة الله تعالى باول المناسك *
فاشعر نفسك لبوس المحبة ايها الناسك * ومن اي مواقيت الحج
احرمت * وقد اشعلت بعد الاغتسال نار شوق الوفادة في قلبك
واضرمت * فاغتبط ايها الوافد على حرم الله تعالى فقد استكرمت * قد
فارفع صوتك بالاهلال * ملبيا دعوة ذي الجلال * حتى اذا شارفت
مكة الغراء * وان تجتلي في منصتها العروس الزهراء * فادخل على
اسم الله وسنة نبيه من باب بني شيبة * وقل اللهم صن من لفح نارك
هذه الشيبة * فاذا اكتحلت عيناك بسنا الكعبة البيت الحرام *
وذهلت * فهنالك استهونت كل مشقة لقيتها في طريقك واستسهلت

أول صفحة من الرسالة ـ نسخة (ح)

بمولد المسيح وموضع مهده * وسل من الله قبول مساعيك واستعنه
واستهده * واعطف على موضع جذع النخلة الذي هزت به مريم
فاساقط عليها رطبا جنيا * فناداها من تحتها ان لا تحزني قد جعل
ربك تحتك سريا * ثم المم في طريقك وحق لك الالمام * بقبر يونس
ولوط عليهما السلام * فاذا انتهيت الى قبر الخليل وقبر اسحاق ويعقوب
وقد حننت اليهم حنين الرقوب * فهنالك تقبل مزارك * ويحط ان
شاء الله اوزارك * وخارج ذلك الحرم الخليلي على ما يذكر قبر يوسف الصديق
* والله اعلم بالتحقيق * فاذا قضيت بحول الله عز وجل وقوته من زيارة
جميع تلك الآثار المقدسة اربك * فلا تذكر بعدها مغربك * فقد
من الله عليك بتجديد عهد الوفادة عليها * والنظر اليها * وما ذكرتها
لك على هذا النسق الا تبركا بذكراها * وتشوقا للعودة الثالثة عسى بتجدد
العهد الكريم بها وآراها * واستطابة للحديث معك فيها لانك تعرف
بالمعاينة معناها * وليس من درى حقيقة الشيء كمن لا يدريه * واين
شوق آدم للجنة من شوق بنيه * فعد الى حرم الله العظيم * والق فيه
عصا تسيارك * وقر عينا بمآل اختيارك * واقم بقية عمرك فيه
مستوطنا * والنية الصادقة الخالصة لله عز وجل مستبطنا *
وقل رب تركت من اخواني عبيدا مشتاقين للعودة الى حرمك *
متوسلين اليك في ذلك بفضلك وكرمك * فسهل بعزتك وقدرتك
مرامهم * وسكن بالوصول الى كعبتك المقدسة المشرفة غرامهم وعرفهم
معاهدهم الكريمة بعرفات والمشعر الحرام * وشرفهم بالمثول فيها قبل
ان تقضي على مدتهم بالانصرام * وتعجل اعمارهم قواطع الاخترام *
انك سبحانك مولى المنن الجسام * ومقدر الحظوظ السنية لعباده
والاقسام * واقرأ عليك ايها الاخ الاسنى * المختوم له ان شاء الله بالحسنى
سلاما اعطر من الزهر عند الابتسام * يتلقاه مسك دارين بالتنشق
والابتسام * ورحمة الله وبركاته *(وصية نبوية)*

آخر صفحة من الرسالة ـ نسخة (ح)


القسم الثاني: نصُّ الرِّسَالة



[بسم الله الرحمن الرحيم]

[وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه]

رِسَالَةُ اعْتِبَارِ النَّاسِكِ فِي ذِكْرِ الْآثَارِ الْكَرِيمَةِ وَالْمَنَاسِكِ

كَتَبَ بَعْضُ أُدَبَاءِ الْمَغْرِبِ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ بِمَكَّةَ:

أَخِي[1] الأَعَزَّ الأَكْرَمَ الأَفْضَلَ، الأَبَرَّ الأَوْفَى الأَوْصَلَ، الَّذِي أَسْتَوْحِشُ لِفِرَاقِهِ، وَأَذُوبُ أَسًى وَكَمَداً إِنْ لَمْ أَجْتَمِعْ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَشَاهِدِ الْكَرِيمَةِ، وَإِلاَّ قَدْ بلَّغَكَ اللهُ الْمُنَى، وَأَحَلَّكَ عَنْ قَرِيبٍ بِعَرَفَاتٍ وَمِنًى.

رَسَمْتُهُ إِلَيْكَ مِنْ فَاسَ[2]، وَالأَشْوَاقُ بَعْدَكَ تُصَعِّدُ[3] الأَنْفَاسَ، فَإِلَى اللهِ الْكَرِيمِ أَشْكُو بَيْنَكَ، وَإِلَيْهِ سُبْحَانَهُ أَتَوَسَّلُ، وَلَهُ[4] أَسْأَلُ، أَنْ يَجْمَعَ بِحَرَمِهِ[5] الْكَرِيمِ آخِراً، كَمَا جَمَعَ أَوَّلاً بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَلَقَدْ فَارَقْتَ وَوَدَّعْتَ، وَأَوْدَعْتَ الْجَوَانِحَ مِنْ تَبَارِيحِ الشَّوْقِ مَا أَوْدَعْتَ، وَفَطَّرْتَ الأَفْئِدَةَ بِحَسَبِ مَقْصِدِكَ الْمُبَارَكِ الْمُحَرِّكِ[6] وَصَدَّعْتَ[7]، فَيَسَّرَ اللهُ إِلَى تِلْكَ الْمَثَابَةِ الآمِنَةِ[8] عَوْدَةَ وُصُولِكَ، وَبلَّغَكَ مِنْ لِقَائِهَا غَايَةَ سُؤْلِكَ، وَسَنَّى فِي ذَلِكَ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ الْمُنِيفِ بُغْيَةَ حُصُولِكَ[9]، وَأَجْرَى فُلْكَكَ بِرِيحِ السَّلاَمَةِ حتّى

---

(1) في (م): يَا أَخِي.

(2) يُفهم من هذا بشكل جَلِيٍّ أنّ الرسالة كتبها ابن جُبير يوم كان نزيلا بمدينة فاس.

(3) تصعد: ساقطة من النسخة (م).

(4) في (س): وبِهِ.

(5) في (م): بكرم.

(6) في (ح): المحرس.

(7) في طبعة القاهرة 1282هـ: صعدت.

(8) في (ح) و(م): الأمنية. وهو تصحيف.

(9) في (م): أصولك.

تَنْتَهِيَ[1] ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ عَنْ كُلِّ وَلِيٍّ مِنْ أولئِكَ[2]، إِلَى تِلْكَ المَشَاهِدِ المُعَظَّمَةِ، وَالمَعَاهِدِ المُكَرَّمَةِ، تَحِيَّةً عَاطِرَةً وَسَلاَماً[3]، وتَذْكِرَةً عِنْدَ مُبَاشَرَتِكَ تَقْبِيلَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَاسْتِلاَمَهُ، بِحَوْلِ اللهِ ﷻ.

فَإِذَا بَدَأْتَ ـ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ تَعَالَى ـ بِأَوَّلِ المَنَاسِكِ، فَأَشْعِرْ[4] نَفْسَكَ لَبُوسَ المَحَبَّةِ أَيُّهَا النَّاسِكُ، وَمِنْ أَيِّ مَوَاقِيتِ الْحَجِّ أَحْرَمْتَ، وَقَدْ أَشْعَلْتَ بَعْدَ الاغْتِسَالِ نَارَ الشَّوْقِ[5] الْوَقَّادَةِ فِي قَلْبِكَ وَأَضْرَمْتَ، فَاغْتَبِطْ أَيُّهَا الْوَافِدُ عَلَى حَرَمِ اللهِ تَعَالَى فَقَدِ اسْتُكْرِمْتَ. فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالإِهْلاَلِ مُلَبِّياً دَعْوَةَ ذِي الْجَلاَلِ، حَتَى إِذَا شَارَفْتَ مَكَّةَ الْغَرَّاءَ، وَأَنْ تَجْتَلِيَ فِي مِنَصَّتِهَا الْعَرُوسُ الزَّهْرَاءُ، فَادْخُلْ ـ عَلَى اسْمِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ[6] ـ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ[7]، وَقُلِ: اللَّهُمَّ صُنْ مِنْ لَفْحِ نَارِكَ هَذِهِ الشَّيْبَةَ.

فَإِذَا اكْتَحَلَتْ عَيْنَاكَ بِسَنَاءِ[8] الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَذُهِلْتَ، فَهُنَاكَ[9] اسْتَهْوَنْتَ كُلَّ مَشَقَّةٍ لَقِيتَهَا فِي طَرِيقِكَ وَاسْتَسْهَلْتَ، وَدَنَوْتَ حَتَّى وَقَفْتَ خَلْفَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَجَعَلْتَهُ عَلَى يَسَارِكَ وَكَبَّرْتَ[10]، وَقَبَّلْتَ حَيْثُ قَبَّلَ المُصْطَفَى ﷺ، وَاسْتَعْبَرْتَ[11]،

---

(1) في (س): حتى يذهب. وفي (ق): حين تنتهي.

(2) في (ك): أوليائك.

(3) في (ح)، و(ك): تحيته العاطرة وسلامه، وفي (س): تحيته العاطرة واستلامه.

(4) في طبعة القاهرة 1282هـ: فَشَعِّر.

(5) في (ح): شوق.

(6) في (م)، و(س)، و(ك): رسوله.

(7) رُوي عن عطاء: «أنّ النبي ﷺ دخل المسجد من باب بني شيبة، وخرج من باب مخزوم إلى الصفا». رواه البيهقي، وقال: إِنَّهُ مُرْسَلٌ، جَيِّدٌ. انظر في استحباب دخول المسجد الحرام من باب بني شيبة: مسند أبي داود الطيالسي (1/ 108)، والسنن الكبرى للبيهقي(5/ 72)، والمعجم الكبير للطبراني (11/ 158).

(8) في (س): سنى.

(9) في (م): فهنالك.

(10) «كبرت»: ساقطة من النسخة (م).

(11) في (م): استشعرت.

وَأَخَذْتَ فِي الأَشْوَاطِ الثَّلاثَةِ بِالرَّمَلِ[1]، وَقَدْ أَيْقَنْتَ بِبُلُوغِ أَقْصَى الأَمَلِ، ثُمَّ أَكْمَلْتَ بِالسَّعْيِ مَأْمُولَكَ[2] بَقِيَّةَ أُسْبُوعِكَ، فَحِينَئِذٍ تَجِدُ بَرْدَ السَّلْوَةِ عَنْ أَوْطَانِكَ وَرُبُوعِكَ.

ثُمَّ ارْكَعْ رَكْعَتَي الطَّوَافِ خَلْفَ المَقَام، وَادْعُ لِمَنْ بَعْدَكَ بِالمُقَامِ، وَتَعَلَّقْ بِالأَسْتَارِ دَاعِياً عِنْدَ المُلْتَزَمِ[3]، وَتَضَلَّعْ عِنْدَ شُرْبِكَ مِن ماءِ زَمْزَمَ[4]، وَانْوِ فِيهِ نِيَّةَ مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ عَمَلَهُ، فَـ«مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»[5].

ثُمَّ اجْعَلْ خُرُوجَكَ عَلَى بَابِ الصَّفَا[6]، وَقِفْ عَلَى دَرَجَاتِهَا، وَادْعُ بِخَلاَصِ نَفْسِكَ وَنَجَاتِهَا.

---

(1) رَمَلَ: هَرْوَلَ.

(2) «مأمولك»: واردة فقط في طبعة القاهرة 1282هـ.

(3) روى البيهقي عن عبد الله بن عباس: أنه كان يلزم ما بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْبَابِ وَكَانَ يَقُولُ: مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْبَابِ يُدْعَى الْمُلْتَزَمَ، لاَ يَلْزَمُ مَا بَيْنَهُمَا أَحَدٌ يَسْأَلُ الله شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. (معرفة السنن والآثار للبيهقي 7/ 355).

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: الملتزم موضع يستجاب فيه الدُّعاء، وما دَعَا عبدٌ الله تعالى فيه إلا استجاب. (شفاء الغرام 1/ 369).

(4) عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم».

انظر الحديث في: المعجم الكبير للطبراني(9/ 308)، والمعجم الأوسط له(1/ 259)، وسنن ابن ماجة(4/ 249)، ومسند ابن حنبل (3/ 357)، وسنن الدارقطني (3/ 354)، والسنن الكبرى للبيهقي(5/ 148).

وقال التقي الفاسي: «روينا في المعجم الكبير للطبراني، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: إن التضليع من ماء زمزم علامة ما بيننا وبين المنافقين». (شفاء الغرام 1/ 456 ـ 457).

(5) رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له، إنْ شربته تستشفى به شفاك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه، هي: هزمة جبريل، وسُقيا الله عز وجل إسماعيل». انظر: سُنن ابن ماجة (4/ 249)، ومُسند ابن حنبل (3/ 357).

(6) في النسخ (ح) و(س) و(ك): على باب «الصّفا» و«المروة»، ولا شكّ أنّ «المروة» سبق قلم. ويذكر ابن جبير أنّ «كل وافد إلى مكة ـ شرفها الله ـ يدخلها بعُمرة، فيستحب له الدخول على باب بني شيبة، ثم يطوف سبعا ويخرج على باب الصفا». (رحلة ابن جبير، ص88).

ثُمَّ انْحَدِرْ[1] فِي وَادِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَإِذَا بَلَغْتَ الـمَيْلَ الأَخْضَرَ، فَخُذْ فِي الرَّمَلِ أَخْذَ الـمُجِدِّ إِذَا أَحْضَرَ[2].

فَإِذَا أَتْمَمْتَ السَّعْيَ فَبَادِرْ بِالْحِلَاقِ، وَتَجَنَّبِ التَّقْصِيرَ فَلِلْمُحَلِّقِينَ وَجَبَتِ الدَّعْوَةُ النَّبَوِيَّةُ وُجُوبَ اسْتِحْقَاقٍ[3]، فَإِن لَمْ تَكُنْ مُقْرِناً[4]، فَاخْرُجْ مَتَى شِئْتَ لِلتَّنْعِيمِ[5]، وَأَحْرِمْ مِن مَسْجِدِ عَائِشَةَ بِعُمْرَةٍ، وَقُلْ طُوبَى لِـمَنْ أَفْنَى فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ السَّنِيَّةِ، وَالمَشَاعِرِ[6] الـمَرْضِيَّةِ عُمْرَهُ، وَلَازِمِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ، وَقِفْ دَاعِياً تَحْتَ مِيزَابِهِ[7]، وَتَذَكَّرْ إِخْوَانَكَ بِالدُّعَاءِ، وَكُلُّ مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ تُجْزَى بِهِ، وَصَلِّ عَلَى الرُّخَامَتَيْنِ الْخَضْرَاوَيْنِ، فَهُمَا عَلَامَتَا قَبْرَيْ إِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ هَاجَرَ[8]، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي

---

(1) في (س): تحدّر.

(2) في (ك): حضر.

(3) عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال يوم الحديبية: يرحم الله المحلّقين، قالوا: يا رسول الله! والمقصِّرين؟ قال: يرحم الله المحلقين ثلاثا، قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: والمقصِّرين. قالوا يا رسول الله: ما بال المحلِّقين ظاهرت لهم الترحّم، قال: إنهم لم يشكوا. (كنز العمال 5/ 236 ـ 237).

(4) في (ح) و(س) و(ك): معرفا.

(5) يقول تقي الدين الفاسي ـ نقلا عن صاحب المطالع ـ: «والتّنعيم من الحل بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة، وقيل على أربعة أميال، وسميت بذلك: لأن جبلا عن يمينها يقال له: نعيم، وآخر عن شمالها يقال له: ناعم، والوادي: نعمان». انتهى.

وذكر أيضا أن «الإحرام من الحلّ الذي في جهة التنعيم للمقيم بمكة أفضل من الإحرام من الحل الذي في بقية جهات الحرم، ما خلا الجعرانة، فإن الإحرام منها أفضل عند مالك والشافعي وابن حنبل، وغيرهم من العلماء رحمهم الله». (شفاء الغرام 2/ 523).

(6) في (س) و(ك): المساعي.

(7) وقد رُوي أنّ الدعاء تحت الميزاب مستجاب. (شفاء الغرام 1/ 374، 401 ـ 402).

(8) تكلّم ابن جبير على هاتين الرخامتين، فقال: «وتحت الميزاب، في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم، قبر إسماعيل عليه السلام، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما غريبة المنظر، فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع، وهي أشبه الأشياء بالنكت التي تبقى في البيدق من حل الذهب فيه. وإلى جانبه، مما يلي الركن العراقي، قبر أمه هاجر رضي الله عنها، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف يتبرك الناس بالصلاة في هذين =

مِـمَّن انْقَطَعَ إِلَى حَرَمِهِ الـمُعظَّمِ وَهَـاجَرَ[1]، وَإِذَا فُتِحَ بَـابُ الْكَعْبَةِ الـمُعَظَّمَةِ الـمُكَرَّمَةِ فَكُـنْ فِيهَـا أَوَّلَ دَاخِـلٍ وَآخِـرَ[2] خَـارِجٍ، وَهَنِّـئْ قَدَمَيْـكَ تَتْـرِيبَهُمَـا[3] فِي تِلْـكَ الـمَـدَارِجِ، وَتَوَخَّ مُصَلَّى[4] النَّبِـيِّ ﷺ، مُـتَـوَسِّـلاً إِلَى اللهِ ذِي الـمَعَارِجِ، وَاسْتَـدْعِ مُعَايَنَةَ الـمَقَامِ الْكَرِيمِ عِنْدَ بَـابِ الرَّحْـمَةِ وَقَبِّـلْ فِيهِ، وَاشْرَبْ مَـاءَ زَمْـزَمَ فِي أَثَـرِ الْقَـدَمَيْـنِ الـمُبَارَكَيْنِ فَطُوبَى لِمَنْ بَـاشَرَهُـما بِفِيهِ.

وَفِي أَثْنَاءِ مُقَامِكَ تَعَهَّدِ الـمَعَاهِدَ[5] الشَّرِيفَةَ وَالآثَارَ، وَحَرِّكْ فِيهَا شَوْقَكَ الـمُثَارَ، وَزُرِ الـمَوْلِدَ[6] الـمُقَدَّسَ الـمُبَارَكَ، وَاجْعَلْ[7] فِيهِ نَظَرَكَ وَاعْتِبَارَكَ، وَأَلْـمِمْ بِدَارِ الْخَيْزُرَانِ[8]

= الموضعين من الحجر، وحق لهم ذلك، لأنهما من البيت العتيق، وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين، نوّرهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما، وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار». (رحلة ابن جبير، ص. 75 ـ 76).

(1) «وهاجر»: ساقطة من النسختين (م) و(ك).

(2) في (ح) : أوّل. والصحيح هو ما ورد في غير هذه النسخة.

(3) في (ح): تربيهما.

(4) قال تقي الدين الفاسي في باب (ذكر بيان مصلاه ﷺ في الكعبة): «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله ﷺ يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة، وبعث إلى عثمان ابن طلحة فجاء بالمفتاح، ففتح له الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت وعثمان بن طلحة وأسامة وبلال، فلما خرجوا ابتدرهم الناس، فقلت لبلال: صلى رسول الله ﷺ في البيت؟ قال: نعم، قلت: أين؟ قال: بين العمودين المقدمين تلقاء وجهه». (شفاء الغرام 1/ 267).

(5) في (م): الأماكن.

(6) قال تقي الدين الفاسي في باب (ذكر المواضع المباركة بمكة المعروفة بالمواليد): «فمنها: الموضع الذي يقال له: مولد النبي ﷺ بالموضع الذي يقال له: سُوق اللّيل، وهو مشهور عند أهل مكّة». ثم ذكر ما ورد في بركة الموضع، وقدّم وصفا له. (شفاء الغرام 1/ 484 ـ 487).

وذكر السخاوي أنّ سيدنا محمد ﷺ وُلِدَ «لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام الفيل، بشرقي جوف مكة، في شعب بني هاشم بالدار التي كانت تسكن فيها [أمّه] مع أبيه، وهي بسوق الليل معروفة». (التحفة اللطيفة 1/ 7).

(7) في (م) و(ق): وَأَجِلْ.

(8) هي دار الأرقم المخزومي، «وهي الدار المعروفة بدار الخيزران، عند الصفا، والمقصود بالزيارة منها هو المسجد الذي فيها، وهو مشهور، وهو من المساجد التي ذكرها الأزرقي. وذكر أنّ النبي ﷺ كان مختبئا فيه، وفيه أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه». (شفاء الغرام 1/ 493 ـ 494).

وَسَائِرِ تِلْكَ المَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ وَالمَوَاطِنِ، وَصِلْ بِمَا أَمْكَنَكَ مِنَ الصَّدَقَةِ كُلَّ ثَاوٍ فِيهَا وَقَاطِنٍ، وَزُرِ الْقُبُورَ الطَّاهِرَةَ بِالمُعَلَّى(1)، وَاعْلُ عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ(2) وَقُعَيْقِعَانَ(3)، فَحُقَّ أَنْ يُشْرَفَ(4) عَلَيْهِمَا وَيُعْلَى(5).

وَاقْصِدْ جَبَلَ حِرَاءَ(6) وَاصْعَدْ فِي ذِرْوَتِهِ، فَفِيهِ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ، أَوَّلَ عَلَامَاتِ نُبُوَّتِهِ، وَارْقَ جَبَلَ ثَوْرٍ(7) وَلِجِ الْغَارَ، وَتَذَكَّرْ «ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا» فِيهِ(8) فَنَفَّسَ كُلُّ جَبَلٍ عَلَيْهِ وَغَارَ.

---

(1) أشهر مقابر مكّة، ويقال فيها: المعلاة، والمعلي بلام وياء. «وزيارة هذه المقبرة مستحبة لما حوته من سادات الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين، وكبار العلماء والصالحين رحمهم الله». (شفاء الغرام 1/ 510 ـ 513).

(2) قال تقي الدين الفاسي: «ومن الجبال المحدقة بمكّة أخشباها، وهُمَا: «أبو قبيس» و«الجبل الأحمر»، على ما ذكر الأزرقي، لأنه قال: «أخشبا مكة: أبو قبيس، وهو الجبل المشرف على الصفا إلى السويد إلى الخندمة... والأخشب الآخر: الجبل الذي يقال له: «الأحمر»، وكان يسمى في الجاهلية: «الأعرف». وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان، وعلى دور عبد الله بن الزبير». (شفاء الغرام 1/ 54 ـ 55).
وعن أبي قبيس، انظر ما كتبه تقي الدين الفاسي في: (شِفَاء الغرام 1/ 495-501).

(3) ذكر ياقوت الحموي في مادة «قعيقعان»: «قال السدّي: سمي الجبل الذي بمكة قعيقعان لأن جرهم كانت تجعل فيه قسيها وجعابها ودرقها، فكانت تُقعقع فيه، وقال عرام: ومن قعيقعان إلى مكة اثنا عشر ميلا على طريق الحوف إلى اليمن. وقال عمر بن أبي ربيعة:

هيهات منك قعيقعان وأهلها ... بالحزنتين فشط ذاك مزار

[معجم البلدان 4/ 379].

(4) في (س): تشرف.

(5) في (س): تعلى.

(6) جبل كان يأتيه الرسول ﷺ للعبادة، وهو على ثلاثة أميال من مكّة. «وكان نزول الوحي على النبي ﷺ في حراء، في غار فيه». انظر: شفاء الغرام (1/ 502 ـ 503).

(7) يقع من مكة على ثلاثة أميال، وهو جبل مقصود بالزيارة «لاختفاء النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه فيه حين هاجر إلى المدينة، وذلك في غار مشهور فيه، وهو الغار الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز». (شفاء الغرام 1/ 504 ـ 506).

(8) ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾. سورة التوبة: الآية 40. والآية الكريمة تُشير إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

حَتَّى إِذَا أَظَلَّ[1] شَهْرُ ذِي الْحِجَّةِ وَأَحْرَمَ وُفُودُ اللهِ لِهِلاَلِهِ، وَبَدَأَ كُلُّ أَحَدٍ بِإِهْلاَلِهِ، وَارْتَفَعَتْ بِالتَّلْبِيَةِ الأَصْوَاتُ، فِي أَعْقَابِ الصَّلَوَاتِ، وَأَقَامُوا عَلَى التَّلْبِيَةِ، مُتَأَهِّبِينَ[2] لِيَوْمِ التَّرْوِيَةِ[3]، فَيَالَكَ مِنْ يَوْمٍ تُسَابِقُ فِيهِ إِلَى مِنىً[4] بِالصُّعُودِ، وَاسْتَبْشَرُوا بِمَطَالِعِ السُّعُودِ، فَتَعَدَّوْا مِنًى إِلَى عَرَفَاتٍ[5]، مُوقِنِينَ بِرَحْمَةِ اللهِ ﷻ وَمَنَازِلِ الأَمْنِ فِي الْغُرُفَاتِ، مُرْتَفِعِينَ عَنْ بَطْنِ عُرَنَةَ[6]، عِلْمًا بِأَنَّ مَنْ وَقَفَ فِيهِ فَقَدْ ذَهَبَ حَجُّهُ[7] عَامَهُ ذَلِكَ وَفَاتَ. ثُمَّ أَصْبَحُوا يَوْمَ عَرَفَةَ وَقَدْ جَلَّلَتِ الأَرْضَ فَسَاطِيطُ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَسَائِرِ الآفَاقِ، كَأَنَّهَا قِطَعُ أَزْهَارٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، «صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ»، تَخَالُ الْبَسِيطَةَ[8] مِنْهَا فِي بُسْتَانٍ، فَارْتَقَوْا جَبَلَ الرَّحْمَةِ[9]، ثُمَّ نَزَلُوا إِلَى دَارِ آدَمَ[10] عليه السلام يَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ.

---

(1) في (م): أطل.

(2) في (م): متهيئين.

(3) يوم التروية هو يوم ثامن ذي الحجة، «سُمي بذلك لأنهم كانوا يرتوون فيه الماء. وقيل: لأن ابراهيم الخليل عليه السلام أصبح يتروى في أمر الرؤيا». (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 263).

(4) قال الحنبلي نقلا عن ابن شميل: «سُميت مِنًى لأنّ الكبش مُنِيَ بها أي ذُبح. ومنى بُليدة على فرسخ من مكّة، طولها ميلان، تعمر أيام الموسم، وتخلو بقية السَّنَة إلا ممّن يحفظها، وقلّ أن يكون في الإسلام بلد مذكور إلا ولأهله بِمِنًى مضرب». (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 263).

(5) وقد قيل في سبب تسميتها: «سُميت عرفةُ «عرفةَ» لتعارف آدم وحواء عليهما السلام فيها، لأن آدم أُهبط إلى الهند، وحوّاء عليها السلام إلى جُدّة، فتعارفا بالموقف. وقيل: لتعرف جبريل عليه السلام المناسك بها للخليل إبراهيم عليه السلام. وقيل: لاعتراف الناس بها بذنوبهم، إلى غير ذلك من الأقوال». (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 265).

(6) عُرَنَة: موضع يقع على حُدود عرفات، وليس هو من عرفات، وفيه مسجد إبراهيم حيث تقام الصلاة والخطبة يوم عرفة (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 555).

(7) في (س): حجّته عامه ... ؛ وفي (ك): فقد ذهب فيه حجّة عامه ....

(8) في (س): البسيط.

(9) جبل الرّحمة: موقف الحجّاج يوم عرفة. وفي وصفه يقول ابن جُبير: «وجبل الرحمة المذكور مُنقطع عن الجبال، قائم في وسط البسيط، وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض، وكان صعب المرتقى، فأحدث فيه جمال الدين، المذكورة مآثره في هذا التقييد، أدراجا وطيه من أربع جهاته، يصعد فيها بالدواب الموقورة، وأنفق فيها مالا عظيما». (رحلة ابن جبير، ص.130).

(10) يُذْكر أن لقاء آدم بحواء عليهما السلام تمّ بموقف عرفات (العقد الثمين 1/ 109). ويقول ابن جُبير: «وفي أسفل هذا الجبل المقدس (يعني جبل الرحمة) ـ عن يسار المستقبل للقبلة فيه ـ دار عتيقة البنيان، وفي =

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ابْتَاعُوا قَرَابِينَهُمُ الْمُتَقَبَّلَةَ، لِيَأْكُلُوا مِنْهَا وَيَجْعَلُوا بَقَايَاهَا عَلَى الْبَائِسِ الْفَقِيرِ مُسَبَّلَةً، فَإِذَا اغْتَسَلُوا وَتَطَهَّرُوا لِلْجَمْعِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي مَسْجِدِ إِبْرَاهِيمَ[1]، فَهُمْ، أَيُّهَا الأَخُ الْكَرِيمُ[2]، فِي تِلْكَ الْمَسَالِكِ الْمُبَارَكَةِ وَجْداً وَشَوْقاً فَحُقَّ أَنْ تَهِيمَ، وَهُنَالِكَ لاَ تَنْسَ أَخَاكَ، وَحَاشَاكَ أَنْ تَنْسَاهُ، وَوَاسِهِ بِدَعْوَةٍ، فَمِثْلُكَ مَنْ وَاسَاهُ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا مَعَ الْعَشِيِّ بِإِزَاءِ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ، عِنْدَ الصَّخْرَاتِ[3]، وَقَدِ ارْتَفَعَتْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّلْبِيَةِ الأَصْوَاتُ، وَأُسْبِلَتِ[4] الْعَبَرَاتُ، وَصُعِّدَتِ[5] الزَّفَرَاتُ، وَأُثِيرَتْ بِازْدِحَامِ الرَّكَائِبِ الْغَبَرَاتُ، وَقَدْ وَاجَهُوا الْكَعْبَةَ الْمُقَدَّسَةَ وَاسْتَقْبَلُوهَا[6]، وَرَجَوُا الرَّحْمَةَ مِنَ اللهِ ﷻ وَأَمَّلُوهَا، وَاقِفِينَ شُعْثاً غُبْراً، لاَ يُرَى مِنْهُمْ إِلاَّ ذُو مُقْلَةٍ عَبْرَى، يَتَذَكَّرُونَ بِذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ، مَوْقِفَ الْحَشْرِ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَبْراً، بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ لِمَوْلاَهُمُ الْكَرِيمِ الْكَفِيلِ بِارْتِقَابِهِمْ، يَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وَحَطِّ أَوْزَارِهِمِ الَّتِي حَمَلُوهَا بِاحْتِقَابِهِمْ؛ يُبَاهِي بِهِمُ اللهُ ﷻ مَلاَئِكَةَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ: اشْهَدُوا بِأَنِّي قَدْ رَحِمْتُهُمْ

= أعلاها غرف لها طيقان، تنسب إلى آدم عليه السلام. وعن يسار هذه الدار ـ في استقبال القبلة ـ الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ». (رحلة ابن جبير، ص130).

(1) يقول الحنبلي عن هذا المسجد الذي يُجمع فيه بين الظهر والعصر: «ويُسَمُّونَ هذا المسجد مسجد إبراهيم، وهذا المسجد ببطن عُرَنَةَ، وليس هو من عرفات، فتكون الخطبة والصلاة يوم عرفة ببطن عُرَنَة». (الدرر الفرائد 2/ 255).

(2) في (ح) و(ق): الأكرم.

(3) ذكر بعض العلماء أنّه يُستحَبُّ للحاج أن يقف مستقبل القبلة عند الصخرات وجبل الرحمة. (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 256).

(4) في (س): وانسكبت.

(5) في (س): وتصاعدت.

(6) عن جابر بن عبد الله، قال: ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله.
انظر: صحيح مسلم (4/ 39)، وسنن ابن ماجة (4/ 260).

فَأَنَا أَرْحَمُ الرُّحَمَاءِ[1]. وَقَدْ غَصَّتْ بِذَلِكَ الْجَمْعِ الأَرْضُ الأَرِيضَةُ، وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ، حَتَّى إِذَا وَجَبَتْ، حَلَّتِ الإِفَاضَةُ[2] وَوَجَبَتْ، فَوَصَلُوا مَعَ اللَّيْلِ جَمْعاً، وَقَرَنُوا بِهِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ جَمْعاً، وَمَسْجِدُهُ الْمُبَارَكُ قَدِ اسْتَنَارَ مَشَاعِلَ وَشَمْعاً، وَلِكَثْرَةِ الضَّجِيجِ وَالْعَجِيجِ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ سَمْعاً، وَلاَ تَمْلِكُ الْعُيُونُ دَمْعاً، وَبَاتُوا يَلْتَقِطُونَ[3] وَيُكَسِّرُونَ حَصَا الْجِمَارِ، وَكُلٌّ مَسْرُورٌ بِسَمِيرِهِ[4] تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَيَا شَرَفَ تِلْكَ الأَسْمَارِ، وَعِنْدَ الإِسْفَارِ وَقَفُوا دَاعِينَ، ثُمَّ أَفَاضُوا إِلَى مِنىً مُسْرِعِين، وَأَجَازُوا وَادِيَ مُحَسِّرٍ[5] بِالنَّفْرِ[6] وَالرَّمَلِ، فَائِزِينَ مِنَ اللهِ ﷻ، بِالصُّنْعِ الأَجْمَلِ، مُقْتَدِينَ بِمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِنَ الْعَمَلِ، فَرَمَوْا جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ[7] الْمُحَلَّلَةِ، وَنُفُوسُهُمْ مُبْتَهِجَةٌ[8] مُتَهَلِّلَةٌ.

---

(1) رُوِيَ أن رجلا من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الحاج، وما له حين يخرج من بيته، فقال الرسول ﷺ: «إن له حين يخرج من بيته إلى راحلته لا يخطو خطوة إلا كتب الله له بها حسنة، وحطّت عنه بها خطيئة، وإذا وقف بعرفات فإن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا فيقول: انظروا إلى عبادي شُعْثاً غُبْراً، أشهدكم أني قد غفرت لهم ذنوبهم، ولو كانت عدد قطر المطر».(أخرجه ابن حبان في الصحيح5/ 206).

(2) أفاض الناس من عرفات: دفعوا، أو رجعوا وتفرّقوا، أو أسرعوا منها إلى مكان آخر، وكل دفعة: إفاضة. (القاموس المحيط، ص600). وقال الحنبلي: «إذا غربت الشمس أفاض [الحاج] إلى مزدلفة بسكينة ووقار، وناويا الجمع بين العشاءين قصرا بأذان وإقامتين، قبل حط رحله، إن أمكن، فإن صلى المغرب في طريقه وترك الجمع جازَ، لكن الجمع أفضل». (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 257).

(3) وردت محرّفة في (ح). وفي (ق): يتلقطون .

(4) في (س): بمسرّة .

(5) مُحَسِّر: هو واد بين المزدلفة ومِنًى، سُمي بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حَسَرَ فيه أي أعيا. (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 258).

(6) في (ح): بالنّظّ. وفي (س): بالنص. وما أثبتناه من النسخة (م).

(7) جمرة العقبة: «هي أقرب الجمار إلى مكة، ورمي الجمار تحية لمنى، كما أن الطواف تحية المسجد، فلا يبدأ [الحاج] بشيء قبله، ويكون الرّمي بعد طلوع الشمس من يوم النحر، ويجوز فعله بعد نصف ليلته، ويستقبل القبلة في كل الرمي. (الدرر الفرائد المنظمة 2/ 259).

(8) في (م) و(ح): منبهجة.

ثُـمَّ انْقَلَبُـوا لِلْحَـلاَّقِ، وَالتَّقَرُّبِ بِالـدَّمِ الـمُهْرَاقِ، إِلَى الـمُهَيْمِنِ الخَـلاَّقِ، وَبَعْـدَ ذَلِـكَ سَارُوا لِطَوَافِ الإِفَاضَـةِ، لاَبِسِينَ مِنَ التَّقْوَى خَيْرَ مَفَاضَـةٍ، ثُـمَّ عَادُوا مُحِلِّينَ قَدْ أَتَـمُّوا الْحَجَّ، وَقَضَوُا الثَّجَّ وَالْعَجَّ[1]، وَأَقَامُوا مُتَنَعِّمِينَ أَيَّامَ مِنىً بِالأَكْلِ وَالشُّرْبِ[2]، وَكُلٌّ مِنْهُمْ قَدْ أَصْبَحَ آمِنَ السِّرْبِ، يَرْمُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي مُحَصَّبِ الْجِمَارِ الثَّلاَثِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ جَـمْرَةً، وَالشَّوْقُ يُلْهِبُ فِي أَحْشَائِهِمْ جَمْرَهُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مَعَ ذَلِكَ فِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ فِي غَمْرَةٍ، وَأَهْلُ الاِنْقِطَاعِ إِلَى اللهِ وَتُجَّارُ الآخِرَةِ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ[3] مَقِيلُهُمْ، وَذِكْرُ اللهِ قِيلُهُمْ، يَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الإِقَالَـةَ وَالـرَّبُّ بِكَرَمِهِ يُقِيلُهُمْ، مُثَابِرِينَ عَـلَى التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، ظَافِـرِينَ بِالـمَتْجَـرِ الرَّبِيحِ، مُلِمِّـينَ بِزِيَـارَةِ مَوْضِـعِ[4] الذَّبِيحِ[5].

ثُـمَّ تَعَجَّلُـوا فِي يَوْمَيْـنِ بِالنَّفْـرِ، فَهَنِـيئاً لَـكَ أَيُّهَـا الأَخُ الْكَرِيـمُ[6] كَـوْنَـكَ فِي أُولَـئِكَ السَّـفْرِ.

---

(1) العجّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجّ: إراقة دمـاء الهدي. وفي الحديث: «أفضل الحجّ: العجّ والثجّ». (ابـن تيمية، مناسك الحجّ والعمرة، ص.12).

(2) روى نُبَيْشة الهذلي أنّ النبي ﷺ قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب». وفي رواية: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذِكْرٍ لله». انظر (صحيح مُسلم 5/ 492 رقم 1926).

(3) مسجد الـخَيْف بِـمِنًى: هو مسجد عظـيم الفـضل لأحـاديث وأخـبار وردت في ذلـك، رُوي عـن رسـول الله ﷺ أنه قال: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا ـ منهم موسى ـ عليهم الـصلاة والـسلام». وفي رواية أخرى: «في مسجد الخيف قبر سبعين نبيا».
انظر: السنن الكبرى للبيهقي (2/ 420)، والمستدرك على الـصحيحين للحـاكم (2/ 653)، والمعجـم الكبير للطبراني (10/ 144).

(4) في (س): موضع فِداء الذبيح.

(5) يُذْكَرُ أنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام ذبح الكبش فداء ابنه إسمـاعيل عليه السلام عنـد موضـع الجمـرات الـثلاث بمِنىً، وعَلّق قرناه على جدار الكعبة. ويُروى أيضا أَنَّهُ لما فتح النبي ﷺ مكّة أمر سادن البيـت أن يُخمِّـر قرنيْ الكبش حتى لا يكون في القبلة مـا يُلْهِي المُصَلِّي. (انظر: فتـاوى ابـن تيميـة 4/ 204-206 ط.دار الوفاء ـ المنصورة 2005م، ونيل الأوطار للشوكاني، رقم:651).

(6) في (س): الأكرم.

فَإِذَا تَـأَهَّبْتَ[1] لِلزِّيَارَةِ الطَّيِّبَةِ وَطُفْتَ طَوَافَ الْوَدَاعِ، فَاسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَأَمانَتَكَ[2] فَهُوَ أَهْلُ الإِيدَاعِ، وَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ.

فَإِذَا اجْتَزْتَ بِقَبْرِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ[3] بِسَرِفْ[4]، فَأَمْسِكْ عِنَانَكَ وَقِفْ، وَاسْكُبْ دَمْعَكَ فِيهِ رَحْمَةً وَاذْرِفْ، فَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ كَاتَبَهَا[5]، وَابْتَنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهَا، وَفِيهِ قُضِيَتْ وَفَاتُهَا، وَمِنْهُ تَجِيءُ زُمْرَتُهَا[6] الطَّاهِرَةُ وَرُفَاتُهَا.

ثُمَّ عُجْ فِي طَرِيقِكَ عَلَى خَيْمَةِ أُمِّ مَعْبَدٍ[7]، فَقَدْ حَازَتْ بِحُلُولِ الرَّفِيقَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ فِيهَا شَرَفَ الذِّكْرِ آخِرَ الأَبَدِ.

---

(1) في نسخة (م): تهيأت.

(2) في نسخة (س): أمانتك ودنياك.

(3) ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن هرم بن روية بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة. وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس، وهي آخر من تزوج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تزوجها بمكّة في عمرة القضاء بعد إحلاله، وبنى بها بسرف، وبها ماتت أيام معاوية، وذلك سنة إحدى وخمسين، وقبرها هناك معروف. (انظر ترجمتها في: سير أعلام النبلاء 3/ 489-494 (رقم: 123) ط.دار الحديث ـ القاهرة. 2006م).

(4) سَرِفْ: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وآخره فاء، وهو موضع على ستة أميال من مكة، تزوج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث، وهناك بنى بها، وهناك توفيت. (معجم البلدان 3/ 212).

(5) في (س): ففي ذلك الموضع كان ابتنى رسول الله ﷺ بها ...

(6) في (س): رمّتها. وفي (ق): ومنها تحيا رمّتها الطاهرة ...

(7) قال شمس الدين السّخاوي: «مَرَّ النبي ﷺ بخيمتي أم معبد ـ عاتكة ـ ومنزلها بعدُ قديد، فرأى شاة خلفها الجهد عن الغنم، فسألها: «أَبِهَا لَبَنٌ ؟» قالت: «هي أجهد من ذلك»، فاستأذنها في حلبها، فقالت: «نعم بأبي وأمي، إن رأيت بها حلبا»، فمسح بيده الطاهرة ضرعها، وسمى الله تعالى، وقال: «اللّهم بارك لها في شاتها» فتفاجت عليه ودرّت واجترّت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه كذلك، ثم شرب آخرهم، وقال «ساقي القوم آخرهم [شربا]، ثم حلب في الإناء ثانيا، حتى ملأه، وتركه عندها وارتحلوا. وأصبح صوتٌ بمكّة عاليا يصيح بين السماء والأرض يسمعونه، ولا يرَوْنَ قائله:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر، ثم ترحّلا ... فقد فاز مَنْ أمسى رفيق محمد

(التحفة اللّطيفة في تاريخ المدينة الشريفة 1/ 14).

وَإِذَا جِئْتَ بَدْراً[1] فَحَيِّ شُهَدَاءَهُ بِالسَّلاَمِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَشْهَدٍ نَصَرَ اللهُ فِيهِ الإِسْلاَمَ[2].

حَتَّى إِذَا بَدَتْ لَكَ أَعْلاَمُ المَدِينَةِ[3]، فَأَبْشِرْ بِاحْتِلاَلِكَ البَلَدَ الَّذِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهِ دِينَهُ، فَإِذَا مَرَرْتَ بِمَسْجِدِ ذِي الْحُلَيْفَةِ[4]، فَعَرِّجْ عَلَيْهِ وَلاَ تُعَرِّجْ عَنْهُ، وَحَيِّهِ بِرَكْعَتَيْنِ فَهُوَ المَسْجِدُ المُبَارَكُ الَّذِي أَحْرَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْهُ.

حَتَّى إِذَا جُزْتَ وَادِيَ الْعَقِيقِ[5] فَهُنَالِكَ[6] انْزِلْ، وَامْشِ كَرَامَةً لِمَنْ حَلَّ فِي ذَلِكَ المَنْزِلِ، وَادْخُلْ عَلَى اسْمِ اللهِ وَعَلَيْكَ الْوَقَارُ وَالسَّكِينَةُ، وَاكْسُ الْخُضُوعَ وَالْخُشُوعَ[7] نَفْسَكَ الْمِسْكِينَةَ.

فَإِذَا دَخَلْتَ مَسْجِدَ الشَّفِيعِ الرَّفِيعِ[8]، فَاقْصِدْ ـ بَعْدَ رَكْعَتَي التَّحِيَّةِ ـ رَوْضَةَ سَيِّدِ دَارِ السَّلاَمِ بِالسَّلاَمِ، وَامْثُلْ قُبَالَةَ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَحَيِّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَفْضَلِ التَّسْلِيمِ، وَالْزَمْ[9] هُنَالِكَ أَدَبَ التَّوْقِيرِ وَالتَّعْظِيمِ، وَقِفْ، وَإِيَّاكَ[10] أَنْ تَلْمَسَ الْجِدَارَ وَتَلْثَمَ، فَقَدْ

---

(1) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء. يُنسب إلى بدر بن قريش، «به سميت بدر التي كانت بها الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرّق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة». (معجم البلدان 1/ 357 ـ 358).

(2) في (ك): الإيمان.

(3) المدينة المنورة، وقد وجدتُ ابن جبير يستعمل العبارة ذاتها لما رأى الكعبة المشرّفة، قال المقري في ترجمة ابن جبير: «وقال ـ رحمه الله تعالى ـ لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا:

بدت لي أعلام بيت الهدى ... بمكّة والنور بادٍ عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى ... وأهديت قلبي هدْيا إليه»

(نفح الطيب 2/ 384).

(4) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة. (معجم البلدان2/ 295).

(5) وادي العقيق: وادٍ بناحية المدينة المنورة، وهو على بُعد ثلاثة أميال منها، فيه عيون ونخل. قال القاضي عياض: العقيق واد عليه أموال أهل المدينة. (معجم البلدان 4/ 139).

(6) في (ق): فمن هنالك. وفي (س): فمن هناك.

(7) في (ك): الخضوع والخشوع.

(8) في (ق): مسجد الرفيع الشفيع.

(9) في (س): والْتزِمْ.

(10) في (ك) و(ق): وقِفْ، ثمّ وإيّاك.

نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ وَلَعَلَّ فاعِلَهُ أَنْ يَأْثَمَ، وَسَلِّمْ عَلَى الصِّدِّيقِ وَالْفَارُوقِ[1] وَزِيرَيْهِ وَصَاحِبَيْهِ[2]، وَقُمْ كَالْمِسْكِينِ بَيْنَ الْكَرِيمَتَيْنِ يَدَيْهِ[3]، فَغَداً تَرْجُو الشَّفَاعَةَ لَدَيْهِ، وَأَنْهِ سَلاَمَ أَوْلِيَائِكَ[4] إِلَيْهِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَحَافِظْ عَلَى الصَّلاَةِ بَيْنَ قَبْرِهِ وَمِنْبَرِهِ، عليه السلام، فَبَيْنَهُمَا «رَوْضَةٌ مِن رِيَاضِ الْجَنَّةِ»[5]، وَالْمَسِ الدَّرَجَةَ الْمُبَارَكَةَ الْبَاقِيَةَ مِنَ الْمِنْبَرِ[6] الْكَرِيمِ، مَوْقِفَ الْقَدَمَيْنِ الْمُقَدَّسَتَيْنِ، وَاتَّخِذِ التَّبَرُّكَ بِلَمْسِهَا جُنَّةً.

وَطُفْ عَلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ الْكَرِيمَةِ وَالدِّيَارِ، وَاسْتَقْرِ مَوَاطِنَ الْبَرَرَةِ الأَخْيَارِ، وَزُرْ قُبُورَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَوْضَةَ الْعَبَّاسِ[7] وَالْحَسَنِ[8]، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ[9]، وَإِنْ أَضْرَمَ الْوَجْدُ عَلَيْهِمْ نَارَ الْحُزْنِ بَيْنَ جَوَانِحِكَ وَأَوْقَدَ، وَحَدِّثْ نَفْسَكَ بِاللَّحَاقِ السَّرِيعِ بِهِمْ فَكَأَنْ قَدِ[10].

---

(1) الصديق والفاروق: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(2) في (س): وزيره وصاحبيه رضوان الله عليهم أجمعين.

(3) في (م): وقُم مقام الخاشع المسكين بين الكريمتين يديه. وفي (س): وقُم مقام الخاضع المسكين.

(4) في (ح): أُولئك. وابن جُبير يُشير هُنَا ـ وللمرّة الثانية ـ إلى جماعة من إخوان ابن مقصير الأندلسيين، كانت رغبتهم ـ على ما يبدو ـ حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى ﷺ.

(5) وفي رواية: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي. (كنز العمال 12/ 259).

(6) أشار إلى ذلك ابن جبير في مُدَوّنة رحلته، فقال: «وصلّينا بالرّوضة التي بين القبر المقدّس والمنبر، واستلمنا أعواد المنبر القديمة، التي كانت موطئ الرسول ﷺ». (رحلة ابن جبير، ص.140).

(7) هو العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ.

(8) هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(9) بقيع الغرقد: هو مقبرة المدينة المنورة منذ زمن الرسول ﷺ. وفيه ما يقرب من عشرة آلاف صحابي رضي الله عنهم. وفيه قبور أزواجه وبناته رضي الله عنهن.

(10) فَكَأَنْ قَدْ: أي فكأن قد وقع ما هو نازل. وكثيرا ما تُستعمل هذه العبارة في موقف التذكير بالموت وفي رسائل العزاء، ويُروى أنه لما مات لابن جبل رضي الله عنه، ابن، كتب إليه رسول الله ﷺ رسالة تعزية، مما ورد في آخرها: «... واعلم أن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا، وما هو نازل فكأن قد، والسلام». (المعجم الأوسط للطبراني 1/ 33).

وَعَرِّجْ فِي آخِرِ الْبَقِيعِ عَلَى رَوْضَةِ ذِي النُّورَيْنِ، عُثْمانَ بْنِ عَفَّانَ[1]، وَمِلْ إِلَى رَوْضَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ[2] أُمِّ عَلِيٍّ السَّابِقِ إِلَى الإِيمانِ.

وَلاَ تَنْسَ عَنْ يَسَارِكَ إِذَا خَرَجْتَ عَلَى بَابِ الْبَقِيعِ قَبْرَ الْعَمَّةِ الطَّاهِرَةِ صَفِيَّةَ[3]، أُمِّ الزُّبَيْرِ[4] الَّذِي كَانَ حَوَارِيَّ[5] الرَّسُولِ ﷺ وَصَفِيَّهُ.

وَامْشِ إِلَى قُبَاءَ[6]، مُظْهِرَ الأُسْوَةِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَالاقْتِدَاءِ، وَزُرْ بِأُحُدٍ[7] عَمَّ الْمُصْطَفَى[8] حَمْزَةَ[9] وَالشُّهَدَاءَ[10].

---

(1) هو ثالث الخلفاء الراشدين، وقد ورد في بعض كتب المناسك أنّه إذا انتهى الحاج إلى قبر عثمان بن عفّان رضي الله عنه، يقول: السلام عليك يا ثالث الخلفاء الراشدين، السلام عليك يا مجهز جيش العسرة بالنقد والعين، وجمع القرآن بين الدّفتين، جزاك الله عن أمة رسول الله خير الجزاء، اللهم ارض عنه وارفع درجته وأكرم مقامه وأجزل ثوابه... آمين.

(2) أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولما توفيت كفنها النبي ﷺ بقميصه ولحدها بيده الشريفة.

(3) صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ.

(4) الزبير بن العوام.

(5) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لكل نبي حواريٌّ وحواريَّ الزبيرُ. انظر: صحيح البخاري (9/ 110)، وصحيح مسلم (7/ 127) رقم 6396.

(6) كان المتقدّمون في الهجرة من أصحاب رسول الله ﷺ، ومَنْ نزلوا عليه من الأنصار، بنوا بقُباء مسجدا يُصَلُّون فيه الصلاة سَنَةً إلى بيت المقدس، فلما هاجر رسول الله ﷺ، ووَرَدَ قباء صلى بهم فيه، وأهل قباء يقولون هو المسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، وقيل إنه مسجد رسول الله ﷺ. (معجم البلدان 4/ 302).

(7) أُحُد: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحد، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليّها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قتل فيها حمزة عم النبي ﷺ، وسبعون من المسلمين، وكسرت رباعية النبي ﷺ، وشجّ وجهه الشريف، وكلمت شفته، وكان يوم بلاء وتمحيص، وذلك لسنتين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجرة النبي ﷺ. وفي الحديث: أنّ النّبي ﷺ، قال: أُحدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ، وهو على باب من أبواب الجنّة. (معجم البلدان 1/ 109). وانظر الحديث في: صحيح البخاري (2/ 155)، وصحيح مُسلم (4/ 114) رقم 3387 (باب فضل المدينة).

(8) في (ق): وزُر بأُحُد حمزة عمّ المصطفى.

(9) سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ.

(10) اقرأ أسماء مَن استشهد مِن المسلمين يوم أُحُد في (جوامع السيرة لابن حزم، ص.132-139).

فَإِذَا أُذِنَ بِالإِرْتِحَالِ، فَأَمِّلْ أَنْ تَجْمَعَ فِي الزِّيَارَةِ بَيْنَ المَسَاجِدِ الثَّلاَثَةِ الَّتِي لاَ تُشَدُّ إِلاَّ إِلَيْهَا الرِّحَالُ[1]، مُؤْثِراً سُلُوكَ المَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ مِنَ السُّنَّةِ، مُلْتَمِساً بَرَكَةَ الْحَدِيثِ الْمأْثُورِ: «مَنْ زَارَنِي وَزَارَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ فِي عَامٍ وَاحِدٍ، ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ»[2]، وَالضَّامِنُ مَلِيٌّ، وَهُوَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ، فَأَعْمِلْ رِكَابَكَ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى، وَاسْتَقْصِ[3] الطَّوَافَ بِجَمِيعِ آثَارِهِ المُقَدَّسَةِ، فَمِثْلُكَ مَنِ اسْتَقْصَى، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ الإِحْرَامَ مِنْهُ أَوَّلاً، فَهُوَ فَضْلُ[4] عَمَلٍ صَالِحٍ يُدَّخَرُ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ[5] بِمَغْفِرَةِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الذَّنْبِ وَمَا تَأَخَّرَ[6]، حَيْثُ اخْتُصَّ المُصْطَفَى ﷺ بِالإِسْرَاءِ، وَعُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى فِيهِ بِجَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ.

وَتَبَرَّكْ بِالصَّخْرَةِ[7] المُقَدَّسَةِ فَمِنْهَا كَانَ مِعْرَاجُ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَصَلِّ خَلْفَهَا فَهِيَ المَكَانُ الْقَرِيبُ الَّذِي يُنَادِي المُنَادِي مِنْهُ لِلْمَنْشَرِ وَالمَحْشَرِ[8].

---

(1) صحيح البخاري 2/ 76ـ 77 - طبعة عيسى البابي الحلبي.

(2) السيوطي، الدُّرَرُ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، (ص.150).

(3) ق: واستقصي.

(4) في (م) و(ك): أفضل.

(5) في (ك): حديث شريف.

(6) يُشير إلى حديث: مَنْ أهلّ من المسجد الأقصى غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. وفي رواية: مَنْ أحرم بحج أو عمرة من المسجد الأقصى كان كيوم ولدته أمه. (انظر: كنز العمال (12/ 288)، وضعيف «الجامع الصغير» للألباني (رقم: 5352 و5493). وأخرج الطبراني في المعجم الأوسط (9/ 97) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحرم من بيت المقدس قَدِمَ مكّة مغفورا لَهُ».

(7) انظر في فضل الصخرة وأنّها مِنَ الجنّة: (الفزاري، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، ص.45-57)، و(ابن الجوزي، فضائل القُدس، ص.139-144).

(8) رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: بيتُ المقدس أرض المحشر والمنشر. (انظر: سُنَن ابن ماجة (2/ 413)، والمعجم الكبير للطبراني (18/ 209)).

وَادْخُلْ قُبَّةَ السِّلْسِلَةِ[1] وَارْكَعْ فِيهَا، وَادْعُ لِنَفْسِكَ وَنُفُوسِ إِخْوَانِكَ بِتَدَارُكِهَا بِالتَّوْبَةِ وَتَلاَفِيهَا، وَصَلِّ فِي مِحْرَابِ زَكَرِيَّا، وَإِيَّاكَ وَالرِّيَا، وَفِي مِحْرَابِ مَرْيَمَ حَيْثُ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ لَدَيْهَا[2]، وَارْقَ فِي مِحْرَابِ دَاوُودَ حَيْثُ كَانَ تَسَوُّرُ الْخَصْمِ[3]، وَصَلِّ فِيهِ مُتَوَسِّلاً إِلَى اللهِ بِشَرَفِ ذَلِكَ الرَّسْمِ[4]، وَوَاصِلْ بِالزِّيَارَةِ مُبْدِئاً لَهَا وَمُعِيداً[5]، نُزُولَ الْمَائِدَةِ الَّتِي كَانَتْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آيَةً وَعِيداً، وَأُسْمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ نُزُولِهَا وَعِيداً[6].

وَلاَ تَمْشِ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ إِلاَّ بِانْكِسَارٍ وَاسْتِحْيَاءٍ، فَإِنَّكَ لاَ تَخْطُو فِيهَا خُطْوَةً إِلاَّ عَلَى مَوَاطِئِ أَقْدَامِ الأَنْبِيَاءِ.

وَلاَ تَنْسَ أَنْ تَتَطَهَّرَ فِي عَيْنِ سُلْوَانَ[7]، وَاذْكُرْ فِيهِ مَنْ لَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ[8] عَنْكَ بِسُلْوَانٍ.

---

(1) انظر في سبب تسميتها بـ«قُبّة السلسلة» كتاب: باعث النفوس (ص.65-66).

(2) في (ك): فوجد عندها رزقا من الله لديها. والمؤلِّف يُشير إلى الآية الكريمة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآ ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (سورة آل عمران، الآية 37).

(3) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾. (سورة ص، الآية 21).

(4) في (ق): الاسم.

(5) في (س) و(ك) و(ق): ومُعيداً موضع نزول المـائدة ...

(6) يُشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (سورة المـائدة، الآية: 116-117).

(7) سُلوان، بِضَمِّ أَوَّلِه: «عين نضّاخة يتبرك بها ويُستشفى منها بالبيت المقدس. وقال البشاري: سُلوان محلة في ربض بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جنانا عظيمة وقفها عثمـان بـن عفـان رضي الله عنه، على ضعفاء بيت المقدس، تحت بئر أيوب عليه السلام». (معجم البلـدان 3/ 241). وانظـر حـول عـين سُـلوان (باعث النفوس للفزاري: ص71-72، وفضائل القُدس لابن الجوزي: ص97-98).

(8) «نفسه»: ساقطة من (ح) و(م).

ثُمَّ [إِذَا] أَخَذْتَ لِلْخَلِيلِ[1] فِي الرَّحِيلِ، فَابْدَأْ فِي أَوَّلِ طَرِيقِكَ بِقَبْرِ رَاحِيلِ[2]، ثُمَّ بِمَوْلِدِ المَسِيحِ وَمَوْضِعِ مَهْدِهِ[3]، وَسَلْ مِنَ اللهِ قَبُولَ مَسَاعِيكَ وَاسْتَعِنْهُ وَاسْتَهْدِهِ، وَاعْطِفْ عَلَى مَوْضِعِ «جِذْعِ النَّخْلَةِ» الَّذِي هَزَّتْ بِهِ مَرْيَمُ فَاسَّاقَطَ عَلَيْهَا «رُطَباً جَنِيًّا»، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[4].

ثُمَّ أَلْمِمْ فِي طَرِيقِكَ وَحُقَّ لَكَ الإِلْمَامُ، بِقَبْرِ يُونُسَ وَلُوطٍ[5] عليهما السلام، فَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى قَبْرِ الْخَلِيلِ وَقَبْرِ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ[6]، وَقَدْ حَنَنْتَ إِلَيْهِمْ حَنِينَ الرُّقُوبِ، فَهُنَالِكَ تُقَبَّلُ مَزَارُكَ، وَتُحَطُّ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ أَوْزَارُكَ[7].

وَخَارِجَ ذَلِكَ الْحَرَمِ الْخَلِيلِيِّ ـ عَلَى مَا يُذْكَرُ ـ قَبْرُ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالتَّحْقِيقِ. فَإِذَا قَضَيْتَ بِحَوْلِ اللهِ عز وجل وَقُوَّتِهِ مِنْ زِيَارَةِ جَمِيعِ تِلْكَ الآثَارِ الْمُقَدَّسَةِ أَرَبَكَ، فَلاَ تَذْكُرْ بَعْدَهَا مَغْرِبَكَ[8]، فَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِتَجْدِيدِ عَهْدِ الْوِفَادَةِ عَلَيْهَا،

---

(1) الخليل: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس، بينهما مسيرة يوم، فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، في مغارة تحت الأرض، وهناك مشهد وزُوّار وقُوّام في الموضع وضيافة للزُّوّار. وبالخليل سُمِّيَ الموضع، واسمه الأصلي حبرون». (معجم البلدان 2/ 387).

(2) راحيل : أُمُّ النبي يوسف عليه السلام.

(3) بيت لحم: مهد المسيح عليه السلام. قال ياقوت: «بيت لحم، بليد قرب البيت المقدس عامر حفل، فيه سوق وبازارات، ومكان مهد عيسى بن مريم عليه السلام. وقال البشاري: بيت لحم قرية على نحو فرسخ من جهة جبرين بها ولد عيسى بن مريم عليه السلام، وثمّ كانت النخلة وليس تُرطب النخيل بهذه الناحية ولكن جُعلت لها آية». (معجم البلدان 1/ 521).

(4) يشير إلى الآية الكريمة:﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٣﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ سورة مريم، الآية 23 ـ 24.

(5) في (ق): هُود.

(6) انظر في فضل زيارة قبر الخليل عليه السلام، وقبور الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، كتاب: (باعث النفوس: 105-115).

(7) في (س): عنك أوزارك...

(8) في (م) و(ك): غربك.

وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا. وَما ذَكَرْتُهَا لَكَ عَلَى هَذَا النَّسَقِ إِلاَّ تَبَرُّكاً بِذِكْرَاهَا، وَتَشَوُّقاً[1] لِلْعَوْدَةِ[2] الثَّالِثَةِ عَسَى نُجَدِّدُ[3] الْعَهْدَ الْكَرِيمَ بِهَا وَأَرَاهَا، وَاسْتِطَابَةً لِلْحَدِيثِ مَعَكَ فِيهَا؛ لأَنَّكَ تَعْرِفُ بِالْمُعَايَنَةِ مَعْنَاهَا، وَلَيْسَ مَنْ دَرَى حَقِيقَةَ الشَّيْءِ كَمَنْ لاَ يَدْرِيهِ، وَأَيْنَ شَوْقُ آدَمَ لِلْجَنَّةِ مِنْ شَوْقِ بَنِيهِ، فَعُدْ إِلَى حَرَمِ اللهِ الْعَظِيمِ، وَأَلْقِ فِيهِ عَصَا تَسْيَارِكَ، وَقِرَّ عَيْناً بِمَآلِ اخْتِيَارِكَ، وَأَقِمْ بَقِيَّةَ عُمْرِكَ فِيهِ مُسْتَوْطِناً، وَلِلنِّيَّةِ[4] الصَّادِقَةِ الْخَالِصَةِ للهِ ﷻ مُسْتَبْطِناً، وَقُلْ: رَبِّ تَرَكْتُ مِنْ إِخْوَانِي عَبِيداً مُشْتَاقِينَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى حَرَمِكَ، مُتَوَسِّلِينَ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ بِفَضْلِكَ وَكَرَمِكَ، فَسَهِّلْ بِعِزَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ مَرَامَهُمْ، وَسَكِّنْ بِالوُصُولِ إِلَى كَعْبَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ الْمُشَرَّفَةِ غَرَامَهُمْ، وَعَرِّفْهُمْ مَعَاهِدَهُمُ الْكَرِيمَةَ بِعَرَفَاتٍ وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَشَرِّفْهُمْ بِالْمُثُولِ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى مُدَّتِهِمْ بِالاِنْصِرَامِ، وَتَفْجَأَ أَعْمَارَهُمْ قَوَاطِعُ الاِخْتِرَامِ، إِنَّكَ سُبْحَانَكَ مَوْلَى الْمِنَنِ الْجِسَامِ، وَمُقَدِّرُ الْحُظُوظِ السَّنِيَّةِ لِعِبَادِهِ وَالأَقْسَامِ.

وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَخُ الأَسْنَى، المَخْتُومُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ بِالْحُسْنَى، سَلاَمًا أَعْطَرَ مِنَ الزَّهْرِ عِنْدَ الاِبْتِسَامِ، يَتَلَقَّاهُ مِسْكُ دَارِينَ[5] بِالتَّنَشُّقِ وَالاِبْتِسَامِ. وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ[6].

---

(1) في (س): تشوّفاً.

(2) في (ق): إلى العودة.

(3) في (س): يتجدّد .

(4) في (ح) و(م) و(س): والنّيّة.

(5) دارين: فُرضة بالبحرين يُجلب إليها المسك من الهند. (معجم البلدان 2/ 432).

(6) قَالَ مُحَقِّقُ هذه الرِّسَالَة رشيدُ بن عبد السّلام العَفَاقِـي ـ الرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ البَاقِي ـ : كَانَ الفراغُ مِنْ تحقيق رِسالةِ ابن جُبيرِ الأندلسِيّ بمحروسة طنجة يوم الثلاثاء، 27 رمضان 1431هـ، الموافق لـ 7 سبتمبر 2010م، والحمدُ لله أوّلاً وآخِراً.

الفهـــارس



لائحة المصادر والمراجع

1 ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة،** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب الغرناطي (ت.776هـ). 4 أجزاء، ط. بيروت ـ لبنان.2003م.

2 ـ **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام،** لابن الخطيب الغرناطي (ت.776هـ). تحقيق: سيد كسروي حسن. دار الكتب العلمية ـ بيروت.2003م.

3 ـ **أعلام مالقة،** لمحمد بن علي ابن عسكر (ت.636هـ) ومحمد بن خميس. تحقيق: عبد الله المرابط الترغي. دار الأمان ـ الرباط.1999م.

4 ـ **إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح،** لأبي عبد الله محمد ابن رُشيد السبتي (ت.721هـ). تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. الدار التونسية للنشر ـ تونس.1974م.

5 ـ **ألف با،** لأبي الحجاج يوسف بن محمد ابن الشيخ البلوي (ت.604هـ). عالم الكتب - بيروت.1985م. (ط. الثانية).

6- **باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس،** لبرهان الدين ابن الفركاح الفزاري (ت.729هـ). تحقيق: أحمد عبد الباسط حامد وأحمد عبد الستار عبد الحليم، دار الكتب والوثائق القومية (مركز تحقيق التراث) ـ القاهرة.1430هـ/2009م.

7 ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ـ قسم الموحدين ـ، لابن عذاري المراكشي (كان بقيد الحياة سنة 712هـ). تحقيق: محمد الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة. منشورات دار الغرب الإسلامي ـ بيروت /دار الثقافة ـ الدارالبيضاء (1985م).

8 ـ **بيان مناسك الحج والعمرة،** لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت.728هـ). مطابع الشمرلي ـ القاهرة، د.ت.

9 ـ **تاريخ الأدب الجغرافي العربي،** لاغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي. نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته: إيغور بليايف، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.1963م.

10 ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت.748هـ). تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الاسلامي- بيروت.2003م.

11 ـ **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت.902هـ). دار الكتب العلمية ـ بيروت.1993م.

12 ـ **التكملة لكتاب الصلة**، محمد بن عبد الله ابن الأبّار (ت.658هـ). 4 أجزاء، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار المعرفة ـ الدار البيضاء. 1992م.

13 ـ **تراجم مغربية من مصادر مشرقية**، لمحمد بنشريفة. مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء.1996م.

14 ـ **التكملة لوفيات النقلة**، لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري.(ت.656هـ). حقّقه وعلق عليه: بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت.1981م.

15 ـ **جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس**، لأحمد ابن القاضي (ت.1025هـ). ج 1 ـ 2، دار المنصور للطباعة والوراقة ـ الرباط.1973م.

16 ـ **جمهرة أنساب العرب**، لعلي بن أحمد ابن حزم (ت.456هـ). تحقيق: عبد السلام هارون ـ ط. بيروت.2001م.

17 ـ **جوامع السيرة**، لعلي بن أحمد ابن حزم (ت.456هـ). دار الجيل. بيروت/ مكتبة التراث الاسلامي. القاهرة. (1982م).

18 ـ **الحلة السيراء**، لمحمد بن عبد الله ابن الأبّار (ت.658هـ). تحقيق: حسين مؤنس. دار المعارف ـ القاهرة. (ط. 2) 1985م.

19 ـ **دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية**، لإحسان عباس. دار الغرب الإسلامي ـ بيروت/2001م.

20 ـ **ديوان الرحالة ابن جبير** (تحقيق: منجد مصطفى بهجت). عرض واستدراك. لمصطفى الغديري، مجلة دراسات أندلسية، (تونس)، العدد 23، شوال1420هـ/يناير 2000م.

21 ـ **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، لعبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي (ت. نحو 977هـ). تحقيق: محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية. بيروت. 2002م.

22 ـ **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لمحمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت.703هـ). الجزء 1، تحقيق: محمد بن شريفة. دار الثقافة ــ بيروت.(د.ت). الجزء 4 ـ 5 ـ 6، تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة ـ بيروت.(د.ت). الجزء 8، تحقيق محمد بن شريفة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.1984م.

23 ـ **رحلة ابن جبير**، محمد بن أحمد بن جبير (ت.614هـ). منشورات: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، (د.ت).

24 ـ **رحلة العبدري**، لمحمد بن محمد بن علي الحيحي العبدري (ت. بعد سنة 688هـ). تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين ـ دمشق.1999م.

25 ـ **رواية مشرقية لكتاب «الشفا» للقاضي عياض من طريق الرحالة الأندلسي أبي الحسين بن جبير**، للفقيه محمد المنوني (ت.1420هـ)، مجلة «المناهل»، العدد: 1980/19م، ص.392ـ399.

26 ـ **السنن الكبرى للبيهقي**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. منشورات مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدر آباد، ط.1/ 1344هـ.

27 ـ **سنن ابن ماجة**، لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني (ت.273هـ) منشورات مكتبة أبي المعاطي ـ (5 أجزاء).

28 ـ **سنن الدارقطني**، لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: عبد الله هاشم يماني المدني. دار المعرفة ـ بيروت.1386هـ/1966م .

29 ـ **شرح مقامات الحريري**، لأحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريسي (ت.620هـ) دار الفكر ـ بيروت.1992م.

30 ـ **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، لمحمد بن أحمد بن علي الحسني المكي الفاسي. (ت.832هـ). المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة/الرياض.1996م.

31 ـ **صحيح ابن حبان**، لأبي حاتم محمد ابن حبان التميمي الدارمي البستي (ت.354هـ). ترتيب: علي بن بلبان الفارسي المعروف بالأمير (ت.739هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.1414هـ/1993م.

32 ـ **ضعيف الجامع الصغير**، لمحمد ناصر الدين الألباني. منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق.1408هـ.

33 ـ **صحيح البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت.256هـ). ط.دار الشعب ـ القاهرة.1407هـ/1987م.

34 ـ **صلة الصلة**، لأحمد بن إبراهيم ابن الزبير (ت. 708هـ). ج 3 ـ 4 ـ 5، تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف المغربية ـ الرباط.1995م.

35 ـ **صحيح مسلم**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. دار الجيل/دار الآفاق الجديدة ـ بيروت. (د.ت).

36 ـ **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.** لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت. 714هـ). تحقيق: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.(ط. 2) 1979م.

37 ـ **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، لمحمد بن أحمد بن علي الحسني المكي الفاسي (ت.832هـ). تحقيق فؤاد سيد، مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة.1959م.

38 ـ **الفتوحات المكية، لمحمد** بن علي بن محمد الحاتمي ابن عربي (ت.638هـ). ط.دار الكتب ـ بيروت.1999م.

39 ـ **فضائل القدس**، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن علي ابن الجوزي. تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.1979م.

40 ـ **فهرسة ابن خير**، لأبي عبد الله محمد بن خير الأموي الإشبيلي (ت.575هـ). دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.1979م.

41 ـ **القاموس المحيط**، لأبي عبد الله محمد بن يعقوب الفيروزبادي (ت.817هـ). دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.2003م.

42 ـ **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، للمبارك بن أحمد الموصلي ابن الشعار (ت.654هـ). منشورات معهد تاريخ العلوم ـ فرانكفورت.1990م.

43 ـ **كتاب «الشفا» للقاضي عياض من خلال رُوَّاته ورِوَاياته**، للفقيه محمد المنوني (ت.1420هـ). مجلة «المناهل»، العدد: 22 (1982م)، ص.305ـ423.

44 ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين الهندي. مؤسسة الرسالة ـ بيروت.1989م.

45 ـ **كنز الكتاب ومنتخب الآداب**، لأبي إسحاق إبراهيم بن الحسن البونسي. (ت.651هـ). تحقيق ودراسة: الدكتورة حياة قارة، المجمع الثقافي ـ أبو ظبي.2004م.

46 ـ **المقفى الكبير**، لأحمد بن علي المقريزي (ت.845هـ). دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.1991م.

47 ـ **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، لأحمد بن إبراهيم بن أبي صالح الماجري. تخريج وتعليق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.2007م.

48 ـ **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، لمحمد بن علي بن محمد الحاتمي ابن عربي (ت.638هـ). مطبعة السيد محمد شعراوي ـ القاهرة. 1282هـ.

49 ـ **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، لابن صاحب الصلاة. تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي ـ بيروت.1987م.

50 ـ **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، للشيخ عبد العزيز الفشتالي (ت.1031هـ). تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة ـ الرباط. 1972م.

51 ـ **المغرب في حلى المغرب**، لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت.685هـ). ج1 ـ 2، ط. دار الكتب - بيروت.1997م.

52 ـ **مستفاد الرحلة والاغتراب**، للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت.730هـ). تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب ـ تونس.1975م.

53 ـ **معجم البلدان**، لياقوت بن عبد الله الحموي (ت.626هـ). دار صادر، بيروت.1986م.

54 ـ **مُسند أبي داود**، أبو داود سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي. ط. دار المعرفة ـ بيروت. (د.ت).

55 ـ **المعجم الكبير**، لسليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت.360هـ). تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل.1404هـ/1983م.

56 ـ **مسند الإمام ابن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني. منشورات مؤسسة قرطبة ـ القاهرة. (د.ت).

57 ـ **المعجم الأوسط للطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت.360هـ). تحقيق: طارق بن عوض الله محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. دار الحرمين ـ القاهرة.1415هـ.

58 ـ **المستدرك على الصحيحين**، لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. منشورات دار الكتب العلمية ـ بيروت.1411هـ/1990م.

59 ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأبي العباس أحمد بن محمد المقري (ت.1041هـ). 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.1988م.

60 — Teofilo Galleca Ortega, IBN YUBAYR, Biblioteca de AL-Andalus, fundacion Ibn Tufayl de estudios Arabes, Almeria.2009 , vol.6 , p.151-158

فهرس الموضوعات

القسم الثاني: نص الرسالة المحقق

الفهـــارس

المحقّق في سطور

الأستاذ رشيد بن عبد السلام العفاقي

- وُلِد بمدينة طنجة يوم 13 شوال من عام 1390هـ/12 دجنبر 1970م.
- حصل على الإجازة في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان عام 1417هـ/1996م.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا - قسم تحقيق التراث - من معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة عام 1432هـ/2011م.
- باحث بمركز الدراسات والأبحاث حول الصحابة والتابعين بطنجة.
- عمل بمركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرباط سنتي 2009م-2010م، ولا يزال عضوا في هيئة تحرير مجلة «مرآة التراث» التي يُصدرها المركز.
- أنجز مجموعة من الدراسات والأبحاث حول تاريخ المغرب والأندلس.

ومن أعماله المنشورة:

- المدرسة المرينية بطنجة .. صفحات مجهولة من تاريخ مدرسة منسية.
- تاريخ مدرسة الجامع الكبير بطنجة.
- عقبة بن نافع الفهري .. فاتح المغرب.
- تاريخ قصر المجاز - ج.1.
- الأندلسيون في بلاد جبالة والهبط.
- جبل طارق في العصر الإسلامي.
- ابن مطروح الشريشي .. شارح الحُصرية.
- مقالة في الأوزان والمكاييل، لابن أبي السداد المالقي – تحقيق.
- ثلاث وثائق حُبُسية صادرة عن الصوفي أحمد بن عجيبة – تحقيق.



beautifully written style and passionate eloquence that can only be found in the Andalusian prosimetra. It is just what is expected from someone like Imam Ibnu Jubair who used to be one of the most skilful writers in the Almohads and who also exclelled both in poetry and prose.

It had always been thought that this book was one of the lost Andalusian literary treasures, until professor Rachid Al Affaki managed , wirh God's help, to discover it in one of Morocco's and Andalusia's literary and historical resources of. It is the book «Muhadarat Al Abrar And Musamarat Al Akhyar» written by the great sufi writer Mouhy Eddine Ibn Arabi Al Hatimi Al Murci who died in Damascus in 638 Hijri. Professor Rachid Al Affaki has reproduced it, studied it carefully and recorded its reference to its true author. He has done an amazing job by including his own comments to enlighten the readers and bring them closer to it.

Translation : Abdelhafid Rghioui

The Hermit's Consideration In The Recollection Of The Holy Sites And The Hajj Rites

The Hajj (pilgrimage to Mecca) is the fifth of the fundamental Muslim practices and institutions known as the five pillars of Islam. Considering the grandeur of this rite, Moslem scholars have given it great care and attention, for there is no Hadith or Fikh collection which doesn't include a section on the Hajj that gives a full description of hajj procedure, common mistakes and etiquette. This section also deals with what a hajj (a pilgrim) should or shouldn't do from the moment he or she intends to make pilgrimage till the end of the rite; ranging from what should be done to remedy a mistake that was unintentionally made and so on so forth..The interest in the hajj has led some scholars to even devote independent books in which they compiled everything that is related to this great pillar of Islam.

The interest in the Hajj and the writings about it have not been limited to Hadith and Fikh scholars, writers have also had their contributions in this respect, mainly the Moroccan and Andalusian travellers. Many of whom – those who went to Mekka - consistently recorded their accounts of their trips and gave descriptions of everything they saw and encountered on their way to make their pilgrimage. Once in the holy city of Mecca , they would write about their performance of the rite ..This type of writings was particularly important and was known as "Hajj Trips" or "Hijaz Trips".

Fikh Scholars approached the issue of Hajj in an easily accessible and scientific way as the propose was primarily educational, writers, on the other hand, dealt with it from a literary angle using rhetorical extravagance, imagery and connotation. Their purpose was to display the true feeling of veneration towards the holy Kaaba (The Sacred House).

One of the literary accounts about the rites of the Hajj is "The Hermet's Consideration In The Recollection Of The Holy Sites And The Hajj Rites" written by the Andalusian scholar and traveller Abi Alhussein Ibn Jubair (died in 614 H). The book is characterised by a

Et si les juristes, motivés par leur souci éducatif, ont opté pour un style scientifique simple pour aborder les rituels du pèlerinage, les hommes de lettres ont recouru à un style littéraire sublime, usant d'enjoliveurs stylistiques, de paraboles et de paroles bien cadencées, pour exprimer ainsi leurs sentiments d'exaltation envers la "Maison sacrée de Dieu", et manifester leurs joie et allégresse d'avoir foulé le sol de ces lieux sacrés.

L'un des écrits littéraires produits au sujet du pèlerinage, n'est autre que la lettre intitulée "Emerveillement du dévot relatant les effets honorables et les actes de dévotion" de Abou Al Hussein Mohammad ben Ahmad ben Jubaïr Al andaloussi (m.614 de l'Hégire). Cette lettre se distingue par son style attachant et son expression éloquente, semblables à ceux des "Séances littéraires" andalouses. Et cela n'a rien d'étonnant venant d'un "Imam" de l'ordre de Ibn Joubaïr qui fut l'un des scribes les plus doués du "Khilafa Almouhade", et qui excella aussi bien dans la composition poétique que dans l'écriture prosaïque.

On avait toujours cru que cette lettre était l'une des productions andalouses perdues à jamais, mais grâce au Tout-puissant, le professeur Rachid Affaki a réussi à la dénicher dans l'une des sources référentielles littéraires et historique du Maroc et de l'Andalousie. Et cette lettre n'est autre que l'ouvrage «Muhadarat Al- Abrar wa Musamarat Al- Akhyar» du grand mystique et homme de lettres, Mohyi Dine Ibn Arabi Al Hatimi Al Moursi, décédé à Damas en l'an 638 de l'Hégire.

Le professeur Affaki a repris cette lettre, l'a étudiée, a authentifié son attribution à son auteur et s'est appliqué à la corriger et commenter de manière à servir le texte et rendre accessible son contenu.

Traduction : Rachid Boutaour Kandil

Risalat I'tibar Al-Nasik fi Dikri Al-Athar Al-Karima wa Al-Manasik

Le pèlerinage représente le cinquième pilier fondamental de l'Islam. Et vue sa grande importance religieuse, les érudits de la Charia on accordé à ce rituel un intérêt particulier; ainsi tous les ouvrages traitant du "hadith"(paroles et actes du prophète - paix et salut sur lui) et du "fikh"(jurisprudence) comportent un chapitre traitant du pèlerinage où sont détaillées les dispositions et l'éthique concernant l'exécution des rituels, ainsi que tout ce que doit connaitre et faire le pèlerin, depuis l'affirmation de son intention d'exécuter cette obligation religieuse, jusqu'à la fin de tous les actes du pèlerinage.

Le chapitre traite aussi des initiatives que le pèlerin doit prendre en cas d'erreurs ou de manquement à un devoir cultuel, ainsi que d'autres détails que le musulman trouvera, étoffés ou concis, dans ces chapitres.

Et l'intérêt accordé à ce sujet fut tel qu'un grand nombre de savants ont consacré aux dispositions concernant le pèlerinage des livres séparés, où ils ont rassemblé tout ce qui a trait à cet important pilier de l'Islam.

Mais l'intérêt accordé au pèlerinage ne s'est pas limité aux juristes et aux spécialistes du "Hadith", les hommes de lettres ont eu aussi leur contribution dans ce domaine. Et ce penchant s'est manifesté surtout chez les globe-trotters marocains et andalous. Nombreux parmi ceux qui ont pris le chemin de la Mecque, ont entrepris de noter le déroulement de leur voyage, de décrire les sites d'intérêt qu'ils observaient , de mentionner les savants qu'ils rencontraient et les péripéties de leurs voyage. Et une fois arrivés aux lieux saints, ils se mirent à relater l'exécution de leur rituels et actes de dévotion ; et cette préoccupation a tenu une place considérable dans leur annotations, qui furent connues sous l'appellation de "Les voyages de pèlerinage", ou "Les voyage du Hidjaz".



Royaume du Maroc



Rabita Mohammadia des Oulémas



Publications du Centre des Etudes,
De Recherche & de Revivification Du Patrimoine

Série : Perles du Patrimoine N° 5

Risalat I'tibar Al-Nasik fi Dikri Al-Athar Al-Karima wa Al-Manasik

(Lettre de l'Emerveillement du dévot relatant les effets honorables et les actes de dévotion de pèlerinage).

Ecrit par :
Abou Al- Hussein Mohammad Ibn Ahmad Ibn Jubaïr Al andalousi (m.614 de l'Hégire)

Etude critique et annotation par :
Rachid Affaki